شواهد اليقين
في استدلال الخليل ﷺ
على رب العالمين

سامي السويلم

رمضان ١٤٢٢هـ - ديسمبر ٢٠٠١م

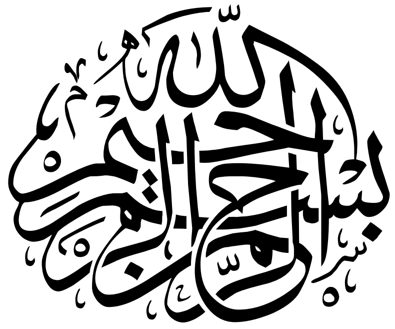
بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

(١) تمهيد ٤

(٢) نبذة عن سيرة الخليل عليه السلام ٧

(٣) موجز تفسير آيات سورة الأنعام ١١

(٤) ثبوت التفسير عن حبر الأمة ١٣

(٥) أقوال أئمة السلف في قصة الخليل عليه السلام ١٦

(٦) دلالة الآيات على صحة تفسير السلف والأئمة ١٩

(٧) حديث الكذبات الثلاث ٢٧

(٨) ما ورد في إنجيل برنابا ٣٢

(٩) وجه استدلال الخليل على بطلان ربوبية الكواكب ٣٤

(١٠) المراد بالرب في قصة إبراهيم ٤٢

(١١) أدلة المنكرين للنظر والجواب عنها ٥٠

(١٢) خاتمة ٧١

(١)

تمهيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً. والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على نبي الهدى، محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه، ومن اتبع سنته واقتفى أثره إلى يوم الدين. أما بعد.

قال الله تعالى:

﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين * وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين * وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شئ علماً أفلا تتذكرون * وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾ الآيات ٧٤-٨١ من سورة الأنعام.

اختلف المفسرون في ما صدر من الخليل ﷺ بشأن الكواكب في هذه الآيات، على قولين:

أحدهما: أن الآيات على ظاهرها، وأن الخليل ﷺ كان ناظراً مجتهداً باحثاً عن الحق قبل البعثة.

الثاني: أنه يمتنع أن يقول النبي للكوكب: هذا ربي، حتى لو كان ذلك قبل البعثة، فالآيات مؤولة. واختلف هؤلاء:

فمنهم من قال إن ذلك صدر منه على سبيل المناظرة والمحاجة لقومه، فيكون تقدير

الكلام: هذا ربي بزعمكم، أو: أهذا ربي؟ على سبيل الاستفهام الاستنكاري. ومنهم من قال إنه كان مستدرجاً لهم إلى الحق، وأنه قال هذا ربي تلطفاً معهم وانتقالاً بهم إلى الحق بالتدرج، ولم يكن ثَم مناظرة. ومنهم من قال إن القصة كانت تعليماً من الله لإبراهيم كيف يحاج قومه.

والقول الأول هو المنقول عن السلف: ابن عباس وقتادة وابن إسحاق، ولا يعرف عنهم خلافه. وأما القول الآخر فهو قول كثير ممن جاء بعدهم من المفسرين.

ورجح مذهب السلف من الأئمة: ابن جرير، وجزم به ابن خزيمة والخطابي، وبه قال ابن عقيل وابن نجم الحنبليان، والنحاس، والقرطبي صاحب التفسير، ومحمد بن إبراهيم الوزير، رحمة الله عليهم جميعاً. ومن المعاصرين سيد قطب، وأبو الحسن الندوي، رحمهما الله، وغيرهم.[١]

وسبب الخلاف في هذه المسألة الظن أن كون الخليل ناظراً يستلزم كونه مشركاً، وأنه لا يجوز وقوع الشرك من النبي ولو كان قبل البعثة. وسأذكر إن شاء الله في هذه الورقات أن تفسير السلف والأئمة للآيات هو الصواب، وأن كون الخليل ناظراً لا يستلزم كونه مشركاً، صلوات الله وسلامه عليه، بل كان موحداً مجتهداً في التعرف على الله تعالى، ولولا توحيده لما كان منه التفكر والنظر في ملكوت السماوات والأرض. ومع ذلك فإن القول بعصمة الأنبياء قبل البعثة قول غير معروف عن السلف، بل هو غلط عظيم، كما يقول شيخ الإسلام رحمه الله.

ثم أُعرج على مباحث لم أر من استوفى الكلام فيها، وهي: تحرير وجه الاستدلال بالأفول على بطلان ربوبية الكوكب، والمراد بالرب في قصة إبراهيم ﷺ. يلي ذلك مناقشة لأدلة المنكرين للنظر، والجواب عليها، وبيان انتفاء صفة الشرك عن الخليل في قوله ﴿هذا ربي﴾. وأمهد لذلك كله بنبذة عن حياة الخليل وسيرته ﷺ.

وألفت نظر القارئ الكريم إلى أني لم أقف على من كتب في هذا الموضوع مرجحاً موقف السلف والأئمة، محاولاً بيان منهج إبراهيم ﷺ في النظر حسب ما تصوره الآيات. فهذا جهد المقل وبضاعة الفقير، فما وجدتَ فيه أخي القارئ من حق وصواب فهو من فضل الله تعالى وحده، وما كان فيه من زلل وخطأ فهو مني ومن الشيطان، وأستغفر الله تعالى من كل

---

[١] يأتي تفصيل الأقوال إن شاء الله.

ذنب، ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾.

شكر وعرفان

ولا أملك في هذه المقدمة إلا أن أشكر صاحب الفضيلة، العلامة المحقق: جعفر شيخ إدريس، الذي فتح قلبه لهذا الموضوع، واتسع صدره لما أثير حول هذه المسألة من النقاش والجدال، وأبدى فيها من حسن النظر ودقة الفكر ما لا يقدره إلا من عرف الشيخ وعرف فضله. فكان مثالاً لسعة العلم ودقة الفهم، وسمو الخلق ورفيع الأدب، فله من الله تعالى حسن الجزاء والثواب، ومني عظيم الامتنان والدعاء. وتبقى عهدة هذا البحث على كاتبه، ولا يلحق فضيلته منها شئ، والفضل أولاً وأخيراً لله تعالى.

(٢)

نبذة عن سيرة الخليل ﷺ

ذكر المؤرخون أن اسمه عند أهل الكتاب هو إبراهيم بن تارخ بن ناحور، وينتسب إلى سام بن نوح، عليهما السلام.[٢] والقرآن نص على أن اسم أبيه آزر، فقد يكون له اسمان، أو أن اسمه آزر ولقبه تارخ، أو العكس.

ولد ببابل، على الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار، وهي أرض الكلدانيين، ثم انتقل إلى حران وهي أرض الكنعانيين، ثم الشام والجزيرة. توفي في حبرون من أرض كنعان عن عمر يناهز مئتي سنة، صلى الله عليه وسلم. ولد له اثنا عشر من الولد من أربع نساء، بكره منهم إسماعيل ثم إسحاق.

كان له مناظرات مع قومه، ومع النمرود، أقام فيها الحجة، وقطع بها دابر الباطل. أثنى الله تعالى عليه بأن جعله للناس إماماً، كما قال: ﴿وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن، قال إني جاعلك للناس إماماً﴾ (البقرة ١٢٤). أتم أمر ربه وقام به خير قيام، ولذلك امتدحه الله تعالى بقوله: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ (النجم ٣٧). فاستحق بذلك رتبة الخُلة، وهي أعلى درجات المحبة، كما قال سبحانه: ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ (النساء ١٢٥).

فضله الله تعالى بأن جعل النبوة في ذريته، كما قال: ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ (العنكبوت ٢٧). قال الحافظ ابن كثير: «فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل فمن ذريته وشيعته. وهذه خِلعةٌ سنية لا تُضاهى ومرتبة علية لا تُباهى».[٣]

فهو عليه السلام أبو الأنبياء، وإمام الحنفاء. يسميه أهل الكتاب «عمود العالم». إليه

---

[٢] البداية والنهاية، ت عبد الله التركي، ١/٣٢٣.

[٣] البداية ١/٣٨٥.

ينتسب المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾ (آل عمران ٦٨). ولم يأمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يتبع ملة أحد من الأنبياء غيره، فقال: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ (النحل ١٢٣).

قال ابن القيم رحمه الله: «ومناقب هذا الإمام الأعظم والنبي الأكرم ﷺ أجل من أن يحيط بها كتاب».[٤]

مناظرات الخليل

أكثر القرآن من ذكر مناظرات الخليل ﷺ مع قومه، فجاءت في سور عدة من القرآن:

- سورة الأنعام (آية ٧٥ وما بعدها).
- سورة مريم (آية ٤١ وما بعدها).
- سورة الأنبياء (آية ٥١ وما بعدها).
- سورة الشعراء (آية ٦٩ وما بعدها).
- سورة العنكبوت (آية ١٦ وما بعدها).
- سورة الصافات (آية ٨٣ وما بعدها).
- سورة الزخرف (آية ٢٦ وما بعدها).

وبعضها أكثر تفصيلاً من بعض. ويظهر من التتبع أن هذه المناظرات كانت مع قومه في بابل، حيث ولد عليه السلام ونشأ. ولذلك يقرن كثيراً بين أبيه وقومه، إشارة إلى أنه كان يناظر قومه الذين ولد وترعرع فيهم. وهم الذين أرادوا أن يحرقوه بالنار فنجاه الله تعالى منهم.

ومناظرة الخليل للنمرود حكاها الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك﴾ الآية ٢٥٨. وقد ذكر المفسرون أن النمرود كان ملك بابل،

---

[٤] جلاء الأفهام، ص٣٨٩، ٤٠٠.

كما ذكر ذلك ابن كثير رحمه الله.[٥] وعلى هذا فإن مناظرات الخليل ﷺ كانت ببابل، إما لأبيه وقومه، وإما لملك بابل النمرود.

قصة سورة الأنعام

والآيات التي جاءت في سورة الأنعام، وما تضمنته من حادثة الكوكب، ثم محاجة الخليل لقومه ومناظرته لهم، تدل على أن ذلك كان ببابل أيضاً. ولكن استظهر الحافظ ابن كثير أن المناظرة كانت لأهل حران لأنهم هم الذين كانوا يعبدون الكواكب، أما أهل بابل فكانوا يعبدون الأوثان.[٦]

وما ذكره ابن كثير من أن أهل بابل يعبدون الأوثان فهذا قد دل عليه القرآن، كما سيأتي، لكن القول بأن المناظرة وقعت مع أهل حران فيه نظر. فآيات الأنعام صريحة أن القصة وقعت بينه وبين أبيه وقومه: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر﴾، ثم قال: ﴿وحاجه قومه﴾. وأهل حران ليسوا قومه حتى ينسب إليهم. وقد صرح أن هؤلاء هم قوم أبيه، لقوله: ﴿إني أراك وقومك﴾، وقوم أبيه هم أهل بابل وليسوا أهل حران.

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله أن دعوة الخليل لأبيه في سورة مريم: ﴿إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ الآيات، أنها وقعت ببابل. وإذا كان كذلك فمن باب أولى أن تكون قصة سورة الأنعام وقعت ببابل، لأنها على ما يبدو كان سابقة للدعوة المذكورة في سورة مريم، فإن آزر لم يستنكر على إبراهيم ولم يعنفه في قصة سورة الأنعام، لكنه توعده في سورة مريم. وهذا يدل أن المناظرة في سورة مريم تالية لقصة سورة الأنعام. ومما يدل على ذلك أيضاً أن الله تعالى ذكر اسم أبيه آزر في الأولى ولم يذكره في الثانية، وهذا يناسب تقدم قصة الأنعام على ما في سورة مريم. فالتعريف أكثر ما يناسب عند ذكر الشئ أول مرة، ثم يحيل إليه لاحقاً، أو يستغني به عن إعادته.

---

[٥] البداية ١/ ٣٤٢.

[٦] البداية ١/ ٣٣٣.

الشرك في قوم إبراهيم

وأما ذكر الكوكب، واستدلال ابن كثير به على أن ذلك كان بحران وليس ببابل لأن أهل بابل يعبدون الأوثان وأهل حران يعبدون الكواكب، ففيه نظر. فأهل بابل مع كونهم يعبدون الأوثان، فقد كانوا كذلك يعتقدون ربوبية الكواكب، وهذا وجه مناسبة ذكر الكوكب في القصة.

والذي يدل عليه القرآن أن قوم إبراهيم اجتمع فيهم شركان: شرك في الربوبية، وشرك في الإلهية. فشرك الربوبية هو اعتقادهم أن الكواكب تنفع وتضر، وأنها أرباب مع الله، كما في قوله تعالى: ﴿فنظر نظرة في النجوم * فقال إني سقيم﴾ (الصافات ٨٨-٨٩)، وأما شرك الإلهية، فهو عبادتهم الأصنام، كما في قوله تعالى: ﴿قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين﴾ (الشعراء ٧١)، كما سيأتي إن شاء الله.

فقوم إبراهيم لم يكونوا يعبدون الكواكب، كما يظنه كثير من المفسرين، بل كانوا يعتقدون بتأثيرها في الكون، أي يشركون بها شرك ربوبية. لكن عبادتهم وصلاتهم كانت للأوثان والأصنام. وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنهم كانوا يعبدون الكواكب والأصنام معاً، ولكن هذا التعميم محل نظر، فإن القرآن صريح في عبادتهم للأصنام دون أي إشارة لعبادتهم الكواكب، بل ظاهر قوله تعالى: ﴿إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً﴾ (العنكبوت ١٧) يدل على حصر عبادتهم لغير الله في الأوثان والأصنام، والله تعالى أعلم.

(٣)

موجز تفسير آيات سورة الأنعام

سنذكر هنا تفسير آيات الأنعام بمقتضى قول السلف باختصار، ونؤجل ذكر الحجج والأدلة إلى الفصول اللاحقة.

قال الله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾. افتتحت الآيات بإنكار الخليل عليه السلام على أبيه وقومه عبادة الأصنام، فهو رآها لا تستجيب لهم ولا تنفعهم ولا تضرهم، فكيف تستحق العبادة؟

وكان هذا الإنكار بداية رحلة الخليل في التعرف على الله تعالى، فأعرض عن الأصنام وانطلق يتفكر في ملكوت السماوات والأرض: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾. والخليل عليه السلام في مقتبل عمره كان يعلم بفطرته الطاهرة أن له رباً يستحق العبادة، لكنه لم يتعرف عليه بعد، ولم يصل إلى تعيينه في الخارج. فألهمه الله النظر في ملكوت السماوات والأرض، لحكمة أرادها سبحانه، وذكرها في كتابه: ﴿وليكون من الموقنين﴾.

﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكباً﴾ أدرك بصفاء فطرته أن العلو والنور من صفات الكمال، وأن ربه حقيق بأن يتصف بها، فتوجه إلى الكوكب العلي البهي، لعله يكون هو. ﴿قال هذا ربي﴾، فناجاه ودعاه، وهذا والله أعلم معنى عبادته الذي ذكره ابن عباس رضي الله عنه، لأن الدعاء هو العبادة. ولكن مضت الساعات والخليل لا يجد من الكوكب أي استجابة. فلما أفل الكوكب أيس الخليل من استجابته. فإنه إذا لم يستجب حال الشهادة فأولى ألا يستجيب حال الغياب، ولذلك قال: ﴿لا أحب الآفلين﴾.

ثم واصل الخليل عليه السلام بحثه عن ربه: ﴿فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾. علم عليه السلام أن ربه يهدي عباده، فسأله بلسان الحال أن يهديه إليه ويدله عليه.

﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر﴾، فالشمس كانت أكبر النجوم

بالنسبة له وأقواها إضاءة، فلو كان شئ من هذه النجوم رباً لكانت هي. فلما لم تستجب الشمس لدعائه، أدرك حينئذ أن ربه أكبر من أي من هذه الكواكب، بل هو ربها جميعاً ورب السماوات والأرض، فأعلن ذلك على قومه دون مداراة أو مجاملة: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾.

يقول سيد قطب رحمه الله: «إنه مشهد رائع باهر هذا الذي يرسمه السياق القرآني في هذه الآيات. مشهد الفطرة وهي - للوهلة الأولى - تنكر تصورات الجاهلية في الأصنام وتستنكرها. وهي تنطلق بعد إذ نفضت عنها هذه الخرافة في شوق عميق دافق تبحث عن إلهها الحق، الذي تجده في ضميرها، ولكنها لا تتبينه في وعيها وإدراكها. وهي تتعلق في لهفتها المكنونة بكل ما يلوح أنه يمكن أن يكون هو هذا الإله! حتى إذا اختبرته وجدته زائفاً، ولم تجد فيه المطابقة لما هو مكنون فيها من حقيقة الإله وصفته .. ثم وهي تجد الحقيقة تشرق فيها وتتجلى لها. وهي تنطلق بالفرحة الكبرى، والامتلاء الجياش، بهذه الحقيقة، وهي تعلن في جيشان اللقيا عن يقينها الذي وجدته من مطابقة الحقيقة التي انتهت إليها للحقيقة التي كانت كامنة من قبل فيها!».[٧]

---

[٧] في ظلال القرآن ٢/١١٣٨، وانظر «قصص النبيين» ١/١٨-٢٠ لأبي الحسن الندوي.

(٤)

ثبوت التفسير عن حبر الأمة ﵁

قال الإمام ابن جرير رحمه الله في تفسيره: «فروي عن ابن عباس في ذلك ما حدثني به المثنى، قال ثنا أبو صالح، قال ثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قوله ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾ يعني به الشمس والقمر والنجوم، ﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي﴾ فعبده حتى غاب،[8] فلما غاب قال: ﴿لا أحب الآفلين﴾. ﴿فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي﴾ فعبده حتى غاب، فلما غاب قال: ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر﴾ فعبدها حتى غابت، فلما غابت قال ﴿يا قوم إني بريئ مما تشركون﴾».[9]

وروى ابن جرير أيضاً بالإسناد نفسه عن ابن عباس ﵁ في تفسير قوله تعالى: ﴿الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾ إلى قوله ﴿نور على نور﴾ قال: «مثل هداه في قلب المؤمن، كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوء. كذلك يكون قلب المؤمن، يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ونوراً على نور، كما قال إبراهيم صلوات الله عليه قبل أن تجيئه المعرفة: ﴿قال هذا ربي﴾ حين رأى الكوكب من غير أن يخبره أحد أن له رباً. فلما أخبره الله ازداد هدى على هدى».[10]

---

[8] المراد والله أعلم دعاه وناجاه حتى غاب، فالدعاء هو العبادة كما صح عن النبي ﷺ.

[9] جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٧/ ٢٤٨.

[10] جامع البيان ١٨/ ١٣٨.

الطعن في رواية ابن أبي طلحة عن ابن عباس

وقد ضعف رشيد رضا الرواية عن ابن عباس رضي الله عنه، فقال: «وأما ما أخرجه ابن جرير الطبري عن ابن عباس من تفسير ﴿هذا ربي﴾ بالعبادة، فلا يصح. وهو من مراسيل ابن أبي طلحة مولى بني العباس. وقد روى عن ابن عباس تفسيراً كثيراً ولم يره، وقال فيه أحمد بن حنبل: له أشياء منكرات، وقال الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب: صدوق يخطئ.[١١] ومعاوية بن أبي صالح الراوي عنه من رجال مسلم، وقد ليّنه ابن معين، وقال أبو حاتم لا يحتج به، ولم يرضه البخاري ولا ابن القطان. فكيف يؤخذ بروايته عن ابن عباس أن إبراهيم خليل الرحمن كان في صغره مشركاً؟».[١٢]

وهذا النقل الذي نقله رشيد رضا رحمه الله مثال للنقل الانتقائي. فإن تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال فيه الإمام أحمد: «إن بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً».[١٣] وقال الحافظ ابن حجر: «وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث، رواها معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وهي عند البخاري عن أبي صالح، وقد اعتمد عليها كثيراً في صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس».[١٤]

ومعلوم أن البخاري إذا جزم في تعليقه فإنه بذلك يكون مصححاً لما أسقطه من الإسناد فيكون الإسناد صحيحاً إلى من علقه عنه كما قرره الحافظ ابن حجر.[١٥] وقد علقه عن ابن عباس في مواضع من التفسير جازماً به إلى ابن عباس رضي الله عنه، فدل على أن الإسناد إلى ابن

---

[١١] كذا قال، والصواب أنه في تقريب التهذيب، ولفظه: صدوق قد يخطئ، كما أنه من رجال مسلم. انظر ترجمة ٤٧٥٤ من التقريب، ت محمد عوامة.

[١٢] تفسير المنار ٧/٥٥٧-٥٥٨، مناهج الجدل ١٧٤.

[١٣] الإتقان ٢/٢٤١.

[١٤] الإتقان ٢/٢٤١، وانظر التهذيب ترجمة علي بن أبي طلحة.

[١٥] هدي الساري ١٧.

عباس صحيح عنده.[١٦]

وأما الانقطاع بين علي بن أبي طلحة وبين ابن عباس فقد استغله المستشرق جولدزيهر للطعن في تفسير القرآن، فقال: «وهكذا فإنه حتى في صحة القسم الخاص بالتفسير الأكثر تصديقاً، يحكم النقدة المسلمون بهذا الحكم فيما يتعلق بصحة نسبته لابن عباس».[١٧]

وقد أجاب أهل العلم بحمد الله عن هذا الطعن، وبينوا أنه لا قيمة له طالما أن الواسطة بين ابن أبي طلحة وبين ابن عباس ثقة. قال الحافظ الطحاوي: «واحتملنا حديث علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وإن كان لم يلقه، لأنه عند أهل العلم بالأسانيد إنما أخذ الكتاب الذي فيه هذا الحديث عن مجاهد وعن عكرمة».[١٨] ونقل ابن المرتضى اليماني عن الذهبي قوله في الميزان: «والصحيح عندهم أن روايته عن مجاهد عن ابن عباس، وإن كان يرسلها عن ابن عباس، فمجاهد ثقة يقبل».[١٩] وقد صرح الحافظ ابن حجر أن بين علي بن أبي طلحة وابن عباس: مجاهد،[٢٠] قال: «بعد أن عرفت الواسطة وهو ثقة، فلا ضير في ذلك».[٢١] وحكم السيوطي كذلك بصحة هذا الإسناد.

فتحصل من ذلك أن رواية ابن أبي طلحة عن ابن عباس أثنى عليها الإمام أحمد، وجزم بها البخاري في صحيحه، وصححها الطحاوي وابن حجر والسيوطي. فلا وجه بعد ذلك للطعن فيها. وأما الزعم أنها دلت على أن الخليل كان مشركاً في صغره فزعم غالط، وسيأتي الرد عليه تفصيلاً إن شاء الله.

---

[١٦] انظر مثلاً: الفتح ٨/١٧٥-١٧٦، ١٩٩-٢٠٠.

[١٧] التفسير والمفسرون ١/٧٨.

[١٨] شرح مشكل الآثار ٦/٢٨٣، ومجاهد وعكرمة، مولى ابن عباس، كلاهما ثقة.

[١٩] إيثار الحق ١٥٩، التفسير والمفسرون ١/٧٨.

[٢٠] انظر تهذيب التهذيب، ترجمة علي بن أبي طلحة.

[٢١] الإتقان ٢/٢٤١.

(٥)

أقوال أئمة السلف في قصة الخليل عليه السلام

وعلى رأسهم إمام المفسرين بلا منازع **أبو جعفر بن جرير الطبري**. قال رحمه الله في تفسيره: «وأنكر قوم **من غير أهل الرواية** هذا القول الذي روي عن ابن عباس، وعمن روي عنه من أن إبراهيم قال للكوكب أو للقمر: هذا ربي. وقالوا: غير جائز أن يكون لله نبي ابتعثه بالرسالة أتى عليه وقت من الأوقات وهو بالغ إلا وهو لله موحد وبه عارف ...». قال: «وفي خبر الله عن إبراهيم: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، الدليل على خطأ هذه الأقوال التي قالها هؤلاء القوم. وأن الصواب من القول في ذلك الإقرار بخبر الله تعالى الذي أخبر عنه، والإعراض عما عداه».[٢٢]

ثم إنا نجد إمام الأئمة **محمد بن خزيمة** أيضاً يؤيد هذا التفسير، فيقول في كتابه «التوحيد»: «وخليل الله إبراهيم عليه السلام عالمٌ في ابتداء النظر إلى الكواكب والقمر والشمس أن خالقه عال فوق خلقه حين نظر إلى الكواكب والقمر والشمس. ألا تسمع قوله: ﴿هذا ربي﴾، ولم يطلبً معرفة خالقه من أسفل، إنما طلبه من أعلى مستيقناً عند نفسه أن ربه في السماء لا في الأرض».[٢٣]

ولا عجب في موقف ابن خزيمة هذا، فإنه قد استعار تفسير ابن جرير من ابن خالويه، ثم رده بعد سنين، وقال: «لقد نظرت فيه من أوله إلى آخره، فما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير».[٢٤]

---

[٢٢] جامع البيان ٧/٢٤٩.

[٢٣] التوحيد ١/٢٦٤.

[٢٤] التفسير والمفسرون ١/٢٠٨.

وقال الإمام **أبو سليمان الخطابي** رحمه الله: «كل وقت وزمان أو حال ومقام حُكم الامتحان فيها قائمٌ فللاجتهاد والاستدلال فيها مدخل، وقد قال إبراهيم عليه السلام حين رأى الكوكب ﴿هذا ربي﴾، ثم تبين فساد هذا القول لما رأى القمر أكبر جرماً وأبهر نوراً، فلما رأى الشمس وهي أعلاها في منظر العين وأجلاها للبصر، وأكثرها ضياء وشعاعاً ﴿قال هذا ربي هذا أكبر﴾ فلما رأى أفولها وزوالها وتبين له كونها محلاً للحوادث والتغيرات تبرأ منها كلها، وانقطع إلى رب هو خالقها ومنشئها».[٢٥]

فهذا هو تفسير أئمة السلف، وقبله تفسير الصحابة والتابعين، كلهم متفقون على القول بأن الخليل عليه السلام كان ناظراً.

منهج التفسير والموقف من تفسير السلف

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإن الصحابة والتابعين إذا كان لهم في الآية قول، وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه، وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان، صاروا مشاركين للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا. وفي الجملة، من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك، بل مبتدعاً، وإن كان مجتهداً يغفر له خطؤه. فالمقصود هو بيان طرق العلم وأدلته وطرق الصواب.»[٢٦]

وهذه القاعدة تنطبق من حيث الجملة على مسألتنا هذه، فإن السلف من الصحابة والأئمة متفقون على أن الخليل كان ناظراً، ولم يعرف القول بالمناظرة عن أحد منهم. وعبارة ابن جرير تدل على ذلك، فإنه قال: «وزعم قوم **من غير أهل الرواية**». وأهل الرواية، كما هو معلوم، هم أهل الحديث والأثر. فإذا كان القول بالمناظرة صادراً عن غيرهم، ولم يعرف عنهم، دل على أنه قولٌ غير مأثور عن الصدر الأول. وسبب هذا القول هو الاعتقاد بوجوب العصمة

---

[٢٥] نقله البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢ / ٤١). والشاهد هنا هو إثبات أن الخليل عليه السلام كان ناظراً، وأما وجه الاستدلال على بطلان ربوبية الكوكب فسيأتي إن شاء الله.

[٢٦] الفتاوى ١٣ / ٣٦١-٣٦٢.

قبل البعثة، وهو قول غير معروف كذلك عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان. وبمقتضى القاعدة التي قررها شيخ الإسلام رحمه الله، فإن هذا التفسير يكون مخالفاً لمنهج أهل السنة وسلف الأمة في تفسير القرآن.

وليس معنى ذلك أن القائلين بأن الخليل كان مناظراً جميعهم ليسوا من أهل السنة، بل منهم من هو من أعلامها ومن كبار علمائها، وإنما حداهم إلى هذا القول الغيرة على أنبياء الله تعالى والذب عنهم، وأدلةٌ رأوا أنها تفيد القول بذلك، وهم في ذلك مجتهدون مأجورون إن شاء الله. لكن قول الصحابة والسلف، مع كونه أحق بالاتباع، لا يلزم منه المحذور الذي فر منه هؤلاء، والأدلة التي تنفي الشرك عن الخليل عليه السلام لا تنافي القول بالنظر، بل هي إلى أن توافق ما ذهب إليه السلف أقرب منها أن تدل على خلافه، كما سنرى إن شاء الله تعالى.

(٦)

دلالة الآيات على صحة تفسير السلف والأئمة

وذلك من وجوه:

١ . إن الله تعالى افتتح الآيات بقول إبراهيم لأبيه: ﴿أتتخذ أصناماً آلهة؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾. ثم انتقل السياق للحديث عن رؤية إبراهيم لملكوت السماوات والأرض. فدل على أنه ﷺ اقتصر على إنكاره على أبيه وحُكمه عليه بالضلال، لكنه لم يبين له الحق والهدى ولم يدعه إلى التوحيد، كما فعل فيما حكاه الله في سورة مريم: ﴿يأبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سويا. يأبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً﴾. ولو كان نبياً أمره الله بهداية الناس لبين ذلك، ولم يجز له السكوت عنه، إذ لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة. فلما لم يذكر شيئاً من ذلك علمنا أنه لم يكن قد نُبئ بعد.

٢ . إن حكمه بضلال أبيه كان رأياً لقوله: ﴿إني أراك﴾. والرأي في لغة الشرع لا يطلق على الوحي. كما في صحيح مسلم: «إذا أمرتكم بشئ من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشئ من رأي فإنما أنا بشر».[٢٧] ففرق عليه السلام بين الرأي والدين، فالدين من الله ولا تردد فيه، والرأي من البشر وقد يصيب وقد يخطئ. وفي سنن أبي داود من حديث أم سلمة رضي الله عنها مرفوعاً: «إني إنما أقضي بينكم برأيي فيما لم يُنزل علي فيه». وفيه أيضاً أن قيس بن عبادة سأل علياً رضي الله عنه عن خروجه في الفتنة: «أخبرنا عن مسيرك هذا، أعهد عهده إليك رسول الله ﷺ أم رأي ارتأيته؟» فقال: «ما عهد إلي رسول الله ﷺ بشئ، لكنه رأي ارتأيته».[٢٨] وفي صحيح مسلم أن قيساً سأل أيضاً عمار بن ياسر فقال: «أرأيت قتالكم، أرأياً ارتأيتموه؟ فإن الرأي يخطئ

---

[٢٧] صحيح مسلم (٢٣٦٢) .

[٢٨] سنن أبي داود (٣٥٨٥)، (٤٦٦٦) .

ويصيب، أو عهداً عهده إليكم رسول الله ﷺ؟».[٢٩] وقال ابن الزبير لابن عباس رضي الله عنهم: «والله ما ترون إلا أنكم أحق بهذا الأمر من سائر الناس». فقال ابن عباس: «إنما يرى من كان في شك، وأما نحن فعلى يقين».[٣٠] وقال الراغب: «الرأي اعتقاد النفس أحد النقيضين عن غلبة ظن».[٣١] ومن كلام العرب: «ما أراه يفعل كذا» أي ما أظنه.[٣٢]

فلو كان الخليل نبياً حينذاك لجزم بضلاله ولم يجعله رأياً، كما قال فيما حكاه الله عنه في سورة الأنبياء: ﴿لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ (الأنبياء ٥١) وقال: ﴿إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا﴾ (العنكبوت ١٦)، ولنسب حكمه إلى الله كما فعل فيما جاء عنه في سورة مريم: ﴿يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً﴾. فلما لم يجزم ولم ينسب حكمه إلى الله، بل جعله مجرد رأي من عنده، علمنا أنه لم يكن حينذاك نبياً، صلى الله عليه وسلم.

٣. إن قوله تعالى ﴿أتتخذ أصناماً آلهة﴾ يدل على أن قوم إبراهيم كانوا يعبدون الأصنام، كما قال تعالى: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون؟ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين﴾، وقال: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟﴾. فعبادتهم كانت للأصنام وليست للكواكب.[٣٣] ولم يذكر القرآن أنهم كانوا يعبدون الكواكب وإنما كانوا يعتقدون ربوبيتها. وإذا كانت عبادتهم وصلاتهم للأصنام والتماثيل، وليست للكواكب، لم يعد هناك أي معنى للمناظرة في عبادة الكواكب، فهم أصلاً لم يكونوا يصلون لها، فعلى أي شئ يناظرهم؟ ولكنه توجه للكواكب ليختبر بنفسه وينظر هل تصلح للعبادة أم لا، بعد أن تبين له أن الأصنام لا تصلح لذلك.

٤. إن الآيات فرقت بوضوح بين موقف الخليل ﷺ من الأصنام وبين موقفه من

---

[٢٩] صحيح مسلم (٧٠٣٦).

[٣٠] سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥٤.

[٣١] المفردات ص ٣٧٤-٣٧٥.

[٣٢] أساس البلاغة.

[٣٣] وقد أشار لذلك ابن الوزير في «البرهان القاطع» ص ٦٠.

الكواكب. فكان رأيه في الأصنام واضحاً لا غموض فيه: ﴿أتتخذ أصناماً آلهة؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾، بينما قال في الكوكب: ﴿هذا ربي﴾. فلو كان الخليل يريد أن يناظر قومه لناظرهم في الأصنام وفي الكواكب، ولو كان يريد أن يتدرج في دعوتهم لتدرج فيهما. فلما فرق بينهما علمنا أنه لم يكن مناظراً ولا متدرجاً. وإنما كان تبين له بطلان عبادة الأصنام، ولم يتبين له بطلان عبادة الكواكب، فأراد أن يختبرها وينظر ويتفكر ليصل إلى الحقيقة.

٥ . إن الله تعالى قال بعد ذلك: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾. وذكر هذه الآية بعد ذكر تضليله لأبيه في غاية المناسبة. فإن إبراهيم عليه السلام كان قد تبين له بطلان عبادة الأصنام، لكن لم يتبين له الحق بعد والله أعلم، فبين الله تعالى كيف ألهم إبراهيم النظر في ملكوت السماوات والأرض، وأن ذلك النظر الغاية منه اليقين بتوحيد الله، وهو ما حصل له ﷺ كما بينت ذلك الآيات بعدها.

٦ . إن الله تعالى علل رؤية الخليل لملكوت السماوات والأرض بقوله: ﴿وليكون من الموقنين﴾. فجعل اليقين بالله مترتباً على الرؤية، فهو تعليل لحصول اليقين بأمر مناسب وهو النظر في ملكوت الله، جاء بحرف اللام وهي تفيد السببية، فدل على أن الرؤية هي سبب اليقين، كما هو مقرر في الأصول. فدل على أن اليقين لم يكن موجوداً قبل الرؤية.

٧. إن الأحداث جميعها جاءت بسياق ضمير المفرد: ﴿وكذلك نري إبراهيم﴾، ولم يقل: نري قوم إبراهيم؛ ﴿وليكون من الموقنين﴾، ولم يقل: ليكونوا من الموقنين؛ ﴿فلما جن عليه الليل﴾؛ ﴿فلما رءا القمر﴾؛ ﴿فلما رءا الشمس﴾. وكان حديث إبراهيم ﷺ عن نفسه كل القصة: ﴿هذا ربي﴾، ثلاثة مواضع؛ ﴿لا أحب الآفلين﴾؛ ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾. ومن الممتنع أن يكون الحديث عن مناظرة بينه وبين قومه، ويتجرد اللفظ في كل القصة له وحده.

ومعلوم أن المناظرة حوار ومرادة في الكلام بين طرفين. والقصة محل الخلاف ليس فيها إلا تأمل إبراهيم ﷺ وكلامه هو وحده، فأين وقعت المناظرة؟

ولذلك كان بعض المعاصرين يستغرب القول بأن القصة كانت مناظرة، ويرى أنها كانت من باب الدعوة والتدرج مع قومه. وهذا القول مع أنه أقرب لظاهر الآيات وأبعد عن التناقض، لكنه في الحقيقة أبعد عن الحق من جهة منهج الأنبياء في الدعوة إلى التوحيد والصدع

بالحق، واجتناب أي تنازلات أو أنصاف حلول في مقام العقيدة، كما أكدت على ذلك سورة الكافرون. واستمع إلى قول الرب تعالى لإمام المرسلين: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً. إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾. فمجرد الركون إلى القوم كان أمراً يستحق العذاب المضاعف في الدنيا والآخرة، فكيف بأن يصرح النبي بالشرك والكفر تأليفاً لقومه؟

٨. إن الخليل ﷺ قال: ﴿هذا ربي﴾، كما تقدم، في ثلاثة مواضع. ومعلوم أن المؤمن، فضلاً عن النبي، يمتنع أن يقول مثل ذلك في حق غير الله. والقول أن تقدير الكلام: هذا ربي بزعمكم، كما يذكر بعضهم، تقدير بعيد في اللغة، يستهجن من الفصيح، فكيف بكتاب الله؟ ولو كان ذلك مراده ﵇ لجاء في الكلام قرينة تشعر بذلك، كما أن قوله ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ واضح الدلالة أنه على سبيل السخرية، لأنه قال قبلها ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾، وقال بعدها: ﴿فاسئلوهم إن كانوا ينطقون﴾. أما أن ينظر ﷺ إلى الكوكب ثم يقول: هذا ربي، ثم يصمت حتى يغيب الكوكب، ثم يقول: لا أحب الآفلين، فليس فيه أي قرينة أنه أراد التأويل الذي ذكروه. ومن زعم أنه قالها على وجه الإنكار والتوبيخ، بتقدير: أهذا ربي؟ وحُذفت الهمزة، فكذلك في البعد.

وكيف تستقيم هذه التأويلات مع قوله في الشمس: ﴿هذا ربي هذا أكبر﴾؟ فمقتضى هذا التأويل أن يكون المراد: أهذا ربي؟ أهذا أكبر؟ وعلى التقدير الآخر: هذا ربي بزعمكم؟ هذا أكبر بزعمكم؟ فهل الخليل ينكر أن الشمس أكبر من القمر؟ وهل يصح تفسير كلام الله بمثل هذا؟ ولذلك قال ابن الوزير رحمه الله: «قوله "هذا أكبر" لا يليق بحالة المناظر.»[٣٤]

ولو أراد الخليل ما زعموه لقال: هذا ربكم، ولم يقل: هذا ربي، كما قال موسى ﵇ للسامري ﴿وانظر إلى **إلهك** الذي ظلت عليه عاكفاً﴾، فنسب إلهية العجل للسامري ولم يطلقها، فضلاً عن أن ينسبها لنفسه. والنبي في مقام الدعوة والبلاغ والبيان وإقامة الحجة لا يلجأ إلى العبارات الموهمة بعيدة الدلالة، ويترك الواضحة الجلية الصريحة الدلالة على المقصود. بل هذا مضاد لمنهج القرآن أصلاً في تقرير أصول الدين ومسائل العقيدة. ولا يصح في الشرع ولا

---

[٣٤] البرهان القاطع، ص ٦٠.

في العقل أن تكون العبارة موهمة إلى هذا الحد، ويتتابع على هذا الوهم الصحابة والتابعون وأئمة السلف، رضوان الله عليهم جميعاً، حتى يأتي بعدهم من يتبين له ما خفي عليهم.

٩. إن قوله ﴿لا أحب الآفلين﴾ جاء بعد أفول الكوكب، ولم يرد قبل ذلك ما يدل على استنكاره لربوبيته. فصمته حتى أفول الكوكب ثم قوله لا أحب الآفلين بعد ذلك، يدل على أن عدم محبته للكوكب نشأت بعد الأفول وليس قبله.

والآيات صريحة أن إبراهيم منذ لحظة البزوغ وحتى الأفول لم يبين بطلان إلهية هذه الكواكب، بل كان صامتاً عن ذلك. فهل يجوز ذلك؟ وماذا يكون حال من مات من قومه بعد قوله: هذا ربي وقبل الأفول؟ وما حال من سمع قوله للشمس «هذا ربي» ثم غادر المدينة ونقل لأهل المدن الأخرى أن النبي يقول عن الشمس «هذا ربي»؟ وهل يرتضي داعية، فضلاً عن نبي من أولي العزم، مثل هذا المنهج في الدعوة؟ قال ابن الوزير: «المحتج على الغير لا يجوز أن يسلم للغير ما يدعي إلا ويبين في تلك الحال أن تسليمه تسليم جدل ويتعقبه من غير تراخ بإبطال كلامه، لأنه لو جاز ذلك يوماً لجاز شهراً أو سنة أو العمر كله.»[٣٥]

١٠. إن قوله ﴿لا أحب الآفلين﴾ جملة سلبية عدمية، تضمنت أن الكوكب ليس أهلاً للعبادة عند إبراهيم، وليس في ذلك إعلان البراءة منها وليس فيه إعلان التوحيد ولا دعوتهم إليه، بل غاية ما فيه أنه ﷺ لا يرتضي عبادة الكواكب. وهو قد صرح بأكثر من ذلك في حق الأصنام حين قال لأبيه: ﴿إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾. ولم يستنكر أبوه ذلك ولم يتوعده بسببه، كما فعل حين دعاه إلى التوحيد فيما جاء في سورة مريم، فرد عليه: ﴿قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم؟ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني سويا﴾.

والمشركون لا يغضبون ممن يُعرض عن آلهتهم ولا يرتضيها لنفسه. فهذا الرسول ﷺ كان طوال عمره قبل البعثة معرضاً عن آلهة قريش، ولم يستوجب ذلك عداوة قومه إياه ولا محاربتهم له آنذاك، بل كانوا يجلّونه ويعظمونه. وإنما الموجب للعداوة هو إعلان الحرب على هذه الآلهة والدعوة إلى التوحيد الخالص. أما مجرد الإعراض عنها والزهد فيها فليس فيه من إقامة الحجة وإعلان التوحيد وتحذير الناس من الشرك ما هو من شأن الأنبياء والمرسلين. فهذا

---

[٣٥] البرهان القاطع، ص ٦٠.

واضح في أن القصة وقعت قبل بعثة الخليل ﷺ.

١١ . إن إبراهيم ﷺ قال: ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾. فهذا صريح في أن إبراهيم ﷺ كان طالباً للهداية ساعياً إليها باحثاً عن الحق. وبهذه الآية احتج الإمام ابن جرير على أن الخليل كان ناظراً ولم يكن مناظراً. وأما الزعم أنه قال ذلك تنزلاً، كما يقول بعضهم، فمن أبعد التأويلات وأغربها، ولا يعرف مثل هذا التأويل في القرآن. فقول الخليل: ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾ في هذا السياق الذي جاءت فيه، لا يمكن أن يدل على ما ذكروه مطلقاً. وليس هو من جنس قول الصحابة: «تالله لولا الله ما اهتدينا»، فإن قول الصحابة يثبت الهداية صراحة، فإن «لولا» حرف امتناع لوجود، امتناع الضلال لوجود هداية الله تعالى، ومنه قول الله تعالى عن المؤمنين: ﴿وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾.

وإنما نظير قول الخليل هذا قولُ آدم عليه السلام: ﴿وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ (الأعراف ٢٣)، وقول نوح عليه السلام: ﴿وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾ (هود ٤٧)، وقول يوسف عليه السلام: ﴿وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾ (يوسف ٣٣).

فآدم عليه السلام حين دعا بدعائه هذا لم يكن قد غفر الله له بعد، ولم يكن من الخاسرين أيضاً. بل كان يطلب المغفرة ويخشى الخسران، فاستجاب الله له فغفر له، كما قال: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾. وكذلك الحال بالنسبة لنوح عليه السلام. وكذلك يوسف عليه السلام، حين دعا بدعائه هذا لم يكن الله قد صرف عنه كيد النسوة بعد، ولم يكن صبا بطبيعة الحال، فلما دعا الله استجاب له: ﴿فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن﴾. ففعل الشرط وجوابه في هذه الجمل كلاهما غير متحقق حين الخطاب.

وهكذا القول بالنسبة لإبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾، فهو حينذاك لم تكتمل له الهداية بعد، لكنه لم يكن من الضالين كذلك. بل كان طالباً للهداية ساعياً إليها، معرضاً عن الضلالة فاراً منها. وهذا من أوضح الأدلة على أن الخليل كان ناظراً باحثاً عن الحق.

١٢ . إنه ﷺ قال حين رأى الشمس: ﴿هذا ربي هذا أكبر﴾. ومراده: أن الشمس أكبر

من الكواكب الأخرى التي رأى، فلو كانت الكواكب تعبد لكانت الشمس أحق بذلك. ولو كان ﷺ مجادلاً لقومه لما راح يستدل لهم ويدافع عن قولهم، ويقول قبل ذلك: ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾، فهذا إضلال للناس في الحقيقة وليس هداية لهم.

والنبي الذي أمره الله تعالى بإظهار الحق وإقامة الحجة وإعلان الرسالة وتحذير الناس من عذاب الله لا يظهر أمام المشركين بمظهر الضعف والتخاذل بل بمظهر القوة والعزة، كما أمر الله تعالى بقوله: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ وقال: ﴿قم فأنذر﴾. أما أن يقول لهم: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، ثم يقول للشمس: هذا ربي هذا أكبر، فهذا إلى إضلال الناس أقرب منه إلى هدايتهم وإرشادهم.

١٣. إن المتتبع لعبارات الخليل يجدها:

* ﴿لا أحب الآفلين﴾.

* ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾.

* ﴿يا قوم إني بريء مما تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾.

وكل عبارة من هذه العبارات جاءت بعد الأفول. ولو كان ﷺ متدرجاً في الدعوة لانتقل من الأدنى إلى الأعلى، حتى يصل إلى إعلان البراءة الكلية. فلما جاء في أثنائها وعبر عن حيرته بقوله: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، علمنا أنه لم يكن مستدرجاً لقومه، ولا مناظراً، لأن المناظرة تتضمن إتباع الحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان. فلما اختل الترتيب المنطقي للمناظرة والتدرج، علمنا أنه لم يكن كذلك أصلاً.

١٤. لو كان ﷺ مناظراً لما احتاج أن يكرر نفس الحجة ثلاثاً مع كل كوكب. بل الحجة تقوم من أول مرة. ثم إن قومه يعلمون أن الكواكب تشرق وتغيب من قبل ذلك. فليس هناك حاجة إلى أن ينتظر حتى يجن الليل، ثم حتى يبزغ القمر، ثم حتى تطلع الشمس. ولا معنى لما جرى إلا أنه ﷺ كان متطلعاً إلى الهداية، متشوفاً إليها، ناظراً في ملكوت الله، وهذا لا يكون إلا قبل البعثة، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى.

١٥. إن الله تعالى صرح متى بدأت المحاجة، وهي المناظرة، وذلك بعد أن أعلن إبراهيم ﷺ البراءة من قومه، وأعلن التوحيد الخالص، فقال: ﴿يا قوم إني بريء مما تشركون. إني

وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين. وحاجه قومه﴾ .... فحينئذ وقعت المناظرة والمحاجة، وذكر الله تعالى جواب إبراهيم على قومه. وهذا شأن القرآن في حكاية المناظرات. كما في مناظرة إبراهيم ﷺ لنمرود:

﴿إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت.

قال: أنا أحيي وأميت.

قال إبراهيم: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب﴾.

فهذه طريقة الخليل في المناظرة، والله تعالى أثنى عليه بقوة الحجة والبرهان، إذ كان ﷺ يقطع خصمه، ويبهته. فأين ذلك من قوله: ﴿لا أحب الآفلين﴾ وقوله: ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾؟ فماذا في هذه العبارات من قطع الخصم ورد حجته؟ وأين هي من قوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾؟ وقوله: ﴿أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون﴾؟ وقوله: ﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنك أشركتم بالله ما لم ينزل به سلطاناً، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾؟

١٦ . إن الله تعالى لم يذكر عن إبراهيم أول القصة أنه دعا إلى التوحيد وإلى نبذ الأصنام. وبعد القصة ذكر إعلان التوحيد والبراءة من الشرك. وهذا يتفق مع القول أن الهداية واليقين حصل أثناء القصة، ولو كان نبياً من أول الأمر لأعلن ذلك من حينه، والنبي لا يبدأ دعوة قومه إلا بذكر التوحيد الخالص من أول لحظة، حتى يكونوا على بينة من أمره، وحتى تتضح حقيقة دعوته، كما ذكر القرآن ذلك عن سائر الرسل صلوت الله وسلامه عليهم أجمعين.

(٧)

حديث الكذبات الثلاث

وفيه دلالة على أن قول الخليل ﴿هذا ربي﴾ لم يكن على سبيل المناظرة. ونذكر الحديث برواياته المختلفة أولاً ثم وجه الاستدلال.

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال مرفوعاً: «لم يكذب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله عز وجل. قوله ﴿إني سقيم﴾، وقوله ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾. وبينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس. فأرسل إليه فسأله عنها فقال من هذه؟ قال: أختي. فأتى سارة قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني. فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذ. فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأُطلق. ثم تناولها الثانية فأُخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك. فدعت فأطلق. فدعا بعض حجبته فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان»، الحديث.[٣٦]

حديث الشفاعة

وفي الصحيحين أيضاً، واللفظ لمسلم، من حديث أبي حيان عن أبي زرعة عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث الشفاعة، وفيه: «فيأتون إبراهيم ﷺ فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم إبراهيم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، **وذكر كذباته**، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى.» ولفظ البخاري: «إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، **وإني قد كنت كذبتُ ثلاث كذبات** - فذكرهن أبو

---

[٣٦] انظر الفتح ٦ /٣٨٨ (٣٣٥٨)، صحيح مسلم ٤ / ١٨٤٠ (٢٣٧١).

حيان في الحديث - نفسي نفسي نفسي».[٣٧]

وقوله في الحديث: «وذكر كذباته» أي أشار إليها لكن لم يعددها ويفسرها، ويدل لذلك رواية البخاري «**وإني قد كنت كذبتُ ثلاث كذبات**. فذكرهن أبو حيان في الحديث». فقوله: فذكرهن أبو حيان، هو من كلام بعض الرواة دون أبي حيان، وليس في كلام إبراهيم عليه السلام تفسير وبيان هذه الكذبات. وفي صحيح أبي عوانة: «وقال: ذكر أبو حيان الكلمات الذي قال إبراهيم كذبت كذبات ولم يبينه في الحديث».[٣٨]

وقد جاء تفسير الكذبات الثلاث في حديث الشفاعة من عدد من الطرق.

فقد جاء منسوباً لنبينا ﷺ عند أحمد عن علي بن زيد بن جدعان عن أبي نضرة عن ابن عباس رضي الله عنه، وساق الحديث وفيه: «فيقولون يا إبراهيم! اشفع لنا إلى ربك فليقض بيننا. فيقول لست هناكم، **إني قد كذبت في الإسلام ثلاث كذبات**، وإني لا يهمني اليوم إلا نفسي. - فقال رسول الله ﷺ: إن حاول [وفي بعض النسخ: جادل] بهن إلا عن دين الله، قوله: ﴿إني سقيم﴾، وقوله ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾، وقوله لامرأته: إنها أختي - ولكن ائتوا موسى» الحديث.[٣٩]

وعند الترمذي من حديث علي بن زيد بن جدعان عن أبي نضرة عن أبي سعيد رضي الله عنه: «فيأتون إلى إبراهيم فيقول: **إني كذبت ثلاث كذبات**. ثم قال رسول الله ﷺ: ما منها كذبة إلا ماحل بها عن دين الله».[٤٠] قال الحافظ ابن حجر: «وماحل بمهملة بمعنى جادل».[٤١] لكن علي بن زيد بن جدعان ضعيف. ورواه المروزي من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس، ولفظه: «فقال رسو ل الله ﷺ: وإن حاول بهن إلا عن دين الله: قوله إني سقيم، وقوله بل فعله كبيرهم هذا، وقوله لامرأته إنها أختي».[٤٢]

---

[٣٧] انظر الفتح ٨/٣٩٥ (٤٧١٢) وصحيح مسلم ١/١٨٤ (١٩٤).

[٣٨] صحيح أبي عوانة (١/١٧٤).

[٣٩] المسند ٤/٤٢٧ (٦٢٩٢).

[٤٠] جامع الترمذي ٥/٢٨٨ (٣١٤٨).

[٤١] الفتح ١١/٤٣٤.

[٤٢] تعظيم قدر الصلاة ١/٢٧٣ (٢٦٥).

كما جاء غير منسوب عند النسائي في الكبرى من طريق شيبان عن قتادة عن أنس: «فيأتون إبراهيم فيقول إني لست هناكم، **ويذكر كذباته الثلاث**، قوله: ﴿إني سقيم﴾ وقوله ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ وقوله لسارة حين أتى على الجبار: أخبري أني أخوك فإني سأخبر أنا أنك أختي».[٤٣]

وجه الاستدلال

وهذا الحديث يدل على أن قول الخليل ﴿هذا ربي﴾ لم يكن على سبيل المناظرة أو السخرية والتهكم، إذ لو كان كذلك لكانت هذه العبارة، بهذا الإطلاق الذي جاءت به، أبعد عن الصدق المحض وأولى بأن توصف بأنها كذبة من قوله لزوجه: هذه أختي، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقوله: إني سقيم. ومع ذلك فإن الرسول ﷺ لم يعد ذلك كذبة. فدل على أنها ليست من ذلك الجنس، وذلك أنها كانت قبل البعثة فلا يؤاخذ عليها أصلاً، فلا تكون بمنزلة ما صدر منه ﷺ بعد البعثة. وقد نبه لذلك أبو العباس القرطبي فقال: «وإنما لم تعد عليه كذبة مع أنها أدْخَلُ [أي أولى بالدخول] في الكذب من هذه الثلاث لأنه والله أعلم حين قال ذلك كان حال الطفولية، وليست حال تكليف».[٤٤] ويشهد لذلك ما جاء في بعض طرق الحديث: «إني كذبت في الإسلام ثلاث كذبات» فدل على أن هذه الكذبات بعد الإسلام.

كما أنه ﷺ حين قالها لم يكن معتقداً بكذبها اعتقاداً جازماً حتى يصدق وصفها بالكذب، بل قالها جاهلاً مجتهداً، ونظير ذلك أن نبينا ﷺ لما صلى إحدى الرباعيات ركعتين، فقال له ذو اليدين: «أقُصرت الصلاة يا رسول الله أم نسيت؟» فقال ﷺ: «كل ذلك لم يكن». أي لم تقصر ولم أنس، وهذا من عموم السلب كما يقول المناطقة. فهنا نفى النبي ﷺ نسيانه، وكان ذلك بحسب ظنه ﷺ، لا بحسب الواقع، فهو صادق في كلامه، ولا يعد ذلك كذباً.[٤٥] ومثل ذلك يقال في قول إبراهيم عليه السلام للكوكب «هذا ربي».

---

[٤٣] السنن الكبرى ٦ / ٤٤٠.

[٤٤] المفهم ٦ / ١٨٤.

[٤٥] انظر شرح النووي لصحيح مسلم ٥ / ٦٩، طرق الاستدلال ليعقوب الباحسين، ص٩٩.

وهذا بخلاف الكلمات الأخرى التي وردت عن الخليل ﷺ، فإنه حين قال: ﴿إني سقيم﴾ كان يعلم أنه غير سقيم بالمعنى الذي فهمه قومه، وكذلك حين قال: «أختي»، كان يعلم أنها ليست أخته بالمعنى الذي فهمه المخاطبون. أما قوله: ﴿هذا ربي﴾، فلم يعلم خلاف ذلك حين قالها، ولم يكن يعرض بمعنى آخر. فالحاصل أن كلمة «هذا ربي» افترقت عن الكلمات الثلاث من وجهين: أنها قيلت قبل البعثة وقبل النبوة، والإسلامُ يجب ما قبله، أما الكلمات الثلاث فكلها قد قيلت بعد النبوة. الثاني: أنه حين قالها لم يكن يعلم بطلانها على أي تقدير، بخلاف الكلمات الثلاث.

ذكر الكوكب

وقد يشكل على ما تقدم ما أورده مسلم بعد أن ذكر حديث أبي حيان السابق في الشفاعة، حيث أسند من حديث عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة، وساق الحديث، ثم قال: «وزاد [أي عمارة] في قصة إبراهيم فقال: **وذكر قوله في الكوكب هذا ربي،** وقوله لآلهتهم: بل فعله كبيرهم هذا، وقوله: إني سقيم».[٤٦] فهذا التفسير للكذبات على ما يظهر من كلام عمارة وليس من الحديث. وذكر الكوكب هنا يعارض ما جاء من الطرق الأخرى.

لكن هذه الرواية انفرد بها عمارة بن القعقاع عن سائر الرواة الذين تقدمت الإشارة إليهم. ولذلك قال الحافظ ابن حجر: «الذي اتفقت عليه الطرق ذكر سارة دون الكوكب» ولذلك رجح أن ذكر الكوكب «وَهْم من بعض الرواة».[٤٧]

ولا مجال للجمع بين ذكر الكوكب وذكر سارة، بحيث يكون مجموع الكذبات أربعاً، وذلك لأن حديث أبي هريرة صرح بأن الخليل ﷺ لم يكذب إلا ثلاثاً، فلا يجوز أن يقال: بل كذب أربع كذبات. وأشار لذلك أبو العباس القرطبي بقوله: «فينبغي ألا يقال عليها كذبة في حق إبراهيم إذ قد نفاها الرسول ﷺ بهذا الحصر».[٤٨]

---

[٤٦] صحيح مسلم (١/١٨٦).

[٤٧] الفتح (٦/٣٩١).

[٤٨] المفهم (٦/١٨٤).

ويقال أيضاً: لو كان ذكر الكوكب بدل قوله عن سارة أختي ثابتاً، لكانت الثلاث جميعاً في ذات الله، بل إن قوله عن الكوكب ﴿هذا ربي﴾ أولى من قوله ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ أن يكون في ذات الله على تأويل من قال إنه كان مناظراً لقومه. فلما ثبت بالنص أن ثنتين من الكذبات فقط في ذات الله، وجب أن تكون الثالثة مغايرة للاثنتين، وجاء ذلك مصرحاً به عند الطبري من حديث محمد بن سيرين مقطوعاً: «وواحدة في ذات نفسه»،[٤٩] وهذا لا يصح لو كانت الثالثة هي قوله ﴿هذا ربي﴾، وهذا يؤكد خطأ ذكر الكوكب.[٥٠]

فإن قيل: قد ورد أن النبي ﷺ قال: «ما منها كذبة إلا ماحل بها عن دين الله» كما تقدم عند أحمد والترمذي، ولفظ المروزي: «إن حاول بهن إلا عن دين الله»، وهذا لا يتفق مع القول أن ثنتين منهن فقط كانت في ذات الله؟

فالجواب: إن هذه العبارة جاءت من حديث حماد بن سلمة، تارة عن ثابت البناني، وتارة عن علي بن زيد بن جدعان. وحماد ثقة عابد لكنه تغير بأخرة، وقال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث وربما حدث بالحديث المنكر، وعلي بن زيد بن جدعان ضعيف. والطرق متفقة على أن «ثنتين منهن في ذات الله»، بل ورد عندالطبري «وواحدة في ذات نفسه»، ورواية الأكثر الأثبت مقدمة عند الاختلاف.

وقد أشار الحافظ إلى أنه ورد في رواية هشام بن حسان عن ابن سيرين عن أبي هريرة عند النسائي في الكبرى وابن حبان والبزار: «إن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات كل ذلك في ذات الله»،[٥١] لكن ذلك محل نظر. فالذي في الكبرى وابن حبان[٥٢] من الطريق المذكور: «ثنتين في ذات الله»، ولم يتيسر لي الوقوف على رواية البزار، والعلم عند الله تعالى.

---

[٤٩] التاريخ (١/ ٢٤٧).

[٥٠] وهذا الخطأ نظير ما وهم فيه بعض الرواة فيما رواه البخاري في صحيحه، أن الله تعالى ينشئ للنار خلقاً، والصواب أنه ينشئ للجنة خلقاً، وليس للنار انظر: فتح الباري ط١، ١٣/ ٤٣٤.

[٥١] الفتح ٦/ ٣٩١، ٣٩٢.

[٥٢] السنن الكبرى ٥/ ٩٨ (٨٣٧٤)، الإحسان ٧/ ٤٩٥ (٥٧٠٧).

(٨)

ما ورد في إنجيل برنابا

أشار عبدالوهاب النجار في كتابه «قصص الأنبياء» إلى ورود قصة الخليل عليه السلام في إنجيل برنابا.[٥٣] والنص، كما جاء في في إنجيل برنابا، الفصل التاسع والعشرين، هو: «حينئذ قال فيلبس: ما أعظم هي رحمة الله للذين يحبونه. قل لنا يا معلم كيف وصل إلى رحمة الله؟ أجاب يسوع: لما بلغ إبراهيم جوار بيت أبيه خاف أن يدخل البيت. فانتقل إلى بعد البيت وجلس تحت شجرة نخل حيث لبث منفرداً. وقال: "لا بد من وجود إله ذي حياة وقوة أكثر من الإنسان لأنه يصنع الإنسان. والإنسان بدون الله لا يقدر أن يصنع الإنسان." حينئذ التَفَتَ حوله **وأجال نظره في النجوم والقمر والشمس فظن أنها هي الله**. ولكن بعد التبصر في تغيراتها وحركاتها قال: "يجب ألا تطرأ على الله الحركة ولا تحجبه الغيوم وإلا فني الناس."[٥٤] وبينما هو متحير سمع اسمه ينادى: "يا إبراهيم." فلما التَفَت ولم ير أحداً في جهة قال: "إني قد سمعت يا إبراهيم." ثم سمع كذلك اسمه ينادى مرتين أخريين "يا إبراهيم." فأجاب: "من يناديني؟" حينئذ سمع قائلاً يقول: "إنه أنا ملاك الله جبريل." ...» إلى آخر النص.[٥٥]

وبحسب علمنا فإن هذه الحادثة مما انفرد إنجيل برنابا بذكره عن الأناجيل الأخرى المتداولة. ويمتاز هذا الإنجيل عن غيره باتفاقه مع الإسلام في نقاط الاختلاف الرئيسية بين الإسلام والمسيحية، كنفيه الصلب عن المسيح عليه السلام، وأنه رسول وليس رباً، والنص على محمد صلى الله عليه وسلم في مواطن متعددة. وقد تباينت آراء الباحثين في النصرانية عن مدى الثقة في إنجيل برنابا مقارنة بالأناجيل الأخرى، كما يظهر في المقدمات التي نشرت مع الإنجيل. وتوجد عناصر اتفاق عديدة بين هذا الإنجيل وبين القرآن، لعل منها هذا النص المتعلق بالخليل

---

[٥٣] قصص الأنبياء ص ١٠٦.

[٥٤] هذا التعليل محل نظر كما سيأتي، والشاهد هو أن الخليل عليه السلام كان ناظراً فحسب.

[٥٥] إنجيل برنابا ص ٧٣–٧٤.

عليه السلام.

ومن جهة النقل فإن الأناجيل الموجودة اليوم، سواء إنجيل برنابا أو غيره، لا يمكن الثقة بما جاء فيها على جميع الأحوال. والذي رجحه شيخ الإسلام أن كتب أهل الكتاب هي بمنزلة كتب السيرة والحديث عند المسلمين، فيها الصحيح والضعيف، وفيها ما يجزم بصدقه وما يجزم بخطئه. وقد قرر رحمه الله: «أن ما وقع من التبديل قليل والأكثر لم يبدل. والذي لم يبدل فيه ألفاظ صريحة بينة بالمقصود تبين غلط ما خالفها، ولها شواهد ونظائر متعددة يصدق بعضها بعضاً، بخلاف المبدل فإنه ألفاظ قليلة وسائر نصوص الكتب يناقضها. وصار هذا بمنزلة كتب الحديث المنقولة عن النبي ﷺ، فإنه إذا وقع في سنن أبي داود والترمذي أو غيرهما أحاديث قليلة ضعيفة كان في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ ما يبين ضعف تلك».[٥٦]

قال: «وإنما يقال التغيير وقع قبل ذلك (أي قبل كتابة الأناجيل الأربعة)، كما يقال في سائر ما ورد عن المسيح وموسى ومحمد عليهم صلوات الله وسلامه من الحديث مثل سيرة ابن إسحاق وأحاديث السنن والمسانيد المأثورة عن النبي ﷺ. ... ولكن في نفس السيرة وقع غلط في مواضع وأحاديث وقعت في السنن هي غلط في الأصل.

قال: «والأناجيل التي بأيدي النصارى تشبه هذا، ولهذا أمروا أن يحكموا بما فيها، فإن فيها أحكام الله، وعامة ما فيها من الأحكام لم يبدل لفظه وإنما بدلت بعض ألفاظ الخبريات وبعض معاني الأمريات. كما نؤمر نحن أن نعمل بأحاديث الأحكام المعروفة عن النبي ﷺ».[٥٧]

وبناء على ما تقدم فإن ماورد في إنجيل برنابا حول نظر الخليل ﷺ إنما يذكر في مقام الاستئناس والاستشهاد، لا مقام الاحتجاج والاستدلال. فإذا وافق ما في الإنجيل ما صرح به القرآن الكريم، وما ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين، كان ذلك مما يدعو إلى الجزم بمدلول النص ومزيد الاطمئنان إلى ذلك، والعلم عند الله تعالى.

---

[٥٦] الجواب الصحيح ١ /٣٧٨.

[٥٧] الجواب الصحيح ٢ /١٧-١٨.

(٩)

وجه استدلال الخليل على بطلان ربوبية الكواكب

وجه استدلال الخليل بالأفول على بطلان ربوبية الكوكب من المواطن المشكلة في هذه القصة. فإبراهيم عليه السلام وقومه يعلمون مسبقاً أن الكواكب تأفل وتغيب، فما الجديد في ذلك؟ وفوق ذلك فإن أفول الكوكب وحده كان كافياً لبيان الحجة، بغض النظر عن وجه الاستدلال. فما الحاجة إلى التكرار مع القمر ومع الشمس، والجميع يعلم أنها تشرق وتأفل منذ بدء الخلق؟

وللقائلين بأن الخليل كان ناظراً جوابان:

الأول: أن ذلك كان زمن الطفولة وقبل البلوغ، وأن الخليل كان محبوساً في غار خوفاً عليه من النمرود، كما نقله ابن جرير عن محمد بن إسحاق.[٥٨] فعلى هذا القول لم يكن الخليل قد رأى الأفول من قبل، ولم يكن يعلم أن الكواكب تأفل وتغيب. فلا إشكال على هذا التقدير. لكن ترتيب واقعة الكوكب على قول الخليل لأبيه: ﴿إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾ يدل على أن القصة وقعت بعد مخالطته لقومه واستنكاره للأصنام. وهذا لا يتفق مع رواية ابن إسحاق.

الثاني: مبني على معنى «الأفول» ووجه دلالته على بطلان ربوبية الكوكب.

وقد فسر بعض المتكلمين والفلاسفة الأفول بالحركة والتغير، وبنوا ذلك على امتناع الحركة والتغير على الرب. وقد بسط شيخ الإسلام الرد على هذا القول، لغة ونقلاً وعقلاً. وبين أن الأفول في اللغة ليس هو الحركة، وأن الحركة والتغير المذكور ظاهر للعيان قبل المغيب، وليس هناك داع للانتظار حتى المغيب لتتبين الحركة. وقرر رحمه الله أن الأفول هو المغيب والاحتجاب، باتفاق أهل اللغة والتفسير، بل هذا معلوم بالاضطرار من لغة العرب التي نزل بها القرآن.[٥٩]

---

[٥٨] تفسير ابن جرير ٧/٢٣٨-٢٤٩.

[٥٩] انظر درء التعارض ١/١٠٩-١١٢، الفتاوى ٦/٢٥٣-٢٥٤.

وفسر رحمه الله الآفل في موضع آخر بأنه الذي يغيب تارة ويظهر أخرى. قال: «فإن الآفل هو الذي يغيب تارة ويظهر تارة، فليس هو قائماً على عبده في كل وقت. والذين يعبدون ما سوى الله من الكواكب ونحوها ويتخذونها أوثاناً، يكونون في وقت البزوغ طالبين سائلين، وفي وقت الأفول لا يحصل مقصودهم ولا مرادهم، فلا يجتلبون منفعة ولا يدفعون مضرة، ولا ينتفعون إذ ذاك بعبادة».[٦٠]

ولكن تفسير الأفول بمطلق المغيب فيه إشكال. فلو قلنا إنه هو مطلق المغيب، لكان تقدير الكلام: لا أحب من يغيب عن البصر. ولكن هذا يناقض أصل الإيمان بالله، إذ هو غيب عن البصر. وقد أشار لذلك شيخ الإسلام في سياق الرد على الباطنية، الذين فسروا الكوكب والقمر والشمس بالنفس والعقل الفعال والعقل الأول، فقال: «والأفول هو المغيب والاحتجاب، فإن أريد بذلك المغيب عن الأبصار الظاهرة فما يدعونه من العقل والنفس لا يزال محتجباً عن الأبصار لا يرى بحال. بل وكذلك واجب الوجود عندهم لا يُرى بالأبصار بحال، بل تمتنع رؤيته بالأبصار عندهم».[٦١] لكنه لم يتعرض للازم ذلك على قول أهل السنة. وبلغ الأمر أن توقف ابن الوزير في وجه دلالة الأفول على بطلان ربوبية الكوكب «لأنه ليس مما نطق به القرآن ولا مما نعلمه».[٦٢]

المراد بالأفول

والراجح، والله أعلم، أن الأفول أخص من المغيب. فالأفول هو غياب الشئ مع اضمحلال أثره وانقطاع صلته. ففي القاموس: أَفَلَت المرضع: انقطع لبنها. وقال الراغب: «الإفال: صغار الغنم، والأفيل: الفصيل الضئيل».[٦٣] وقال ابن إسحاق: «الأفول: الذهاب».[٦٤]

---

[٦٠] الفتاوى ١٦/٢٠٦-٢٠٧.

[٦١] درء التعارض ١/٣١٦.

[٦٢] البرهان القاطع، ص ٦٥.

[٦٣] المفردات، ص٨٠.

[٦٤] تفسير ابن جرير ٧/٢٥٠.

وأشار أبو السعود في تفسيره إلى أن الأفول «حالة مقتضية لانطماس الآثار وبطلان الأحكام».[٦٥]

وهذا النوع من الغياب والاحتجاب هو الذي نفاه الله تعالى في قوله: ﴿فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾ (الأعراف ٧)، وفي الصحيحين: «إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً بصيراً».[٦٦] فالرب تعالى غيب بالنسبة لنا، لكنه ليس غائباً عنا. وسياق آية الأعراف يدل على أن الغائب يراد به من خفي عليه حال من غاب عنه حتى لم يعلمه، ولذلك نفى الغياب في مقابل إثبات العلم. فالغائب عن الشئ هو ما كان غيباً عن الشئ، وكان الشئ أيضاً غيباً عنه، فهو غيب بالنسبة للطرفين.

والغياب يتضمن الغفلة عن المغيب عنه، ولذلك نفى الله تعالى ذلك بقوله ﴿وما كنا عن الخلق غافلين﴾ (المؤمنون ١٧). فنفي الغفلة يتفق مع نفي الغياب، وكلاهما يتفق مع نفي الأفول. والآفل والغائب كلاهما اسم فاعل، ولا يصح إطلاق أي منهما على الله تعالى. فنفي الخليل الربوبية عن الآفل يتفق مع نفي القرآن عن الرب كونه غائباً، وليس في أي منهما ما ينافي كون الرب غيباً عنا. فالرب غيب عنا، لكنا شهادة بالنسبة له: ﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء﴾ (يونس ٦١).

فالكوكب إذا غاب لم يعد له أي أثر، لأنه يصبح غائباً عن المشاهد، فلا يبقى أي صلة بينه وبينه، وهذه حقيقة الأفول: الانقطاع والاضمحلال. فتنقطع الصلة بين الكوكب والمشاهد بمجرد احتجاب الكوكب، لأن هذه الصلة لا تعدو أن تكون صلة الرؤية والمشاهدة فحسب. أما الرب الحق، فلا تنقطع الصلة بينه وبين خلقه حتى إذا احتجب عنهم، لأنه يراهم ويسمعهم ويستجيب لهم حتى مع كونه غيباً عنهم، سبحانه وتعالى. فالرب الحق لا يأفل ولا يضمحل، أما المخلوق فهو يأفل يضمحل.

---

[٦٥] تفسير أبو السعود ٢ / ١٧١ .

[٦٦] انظر: جامع الأصول ٤ / ١٦١ .

وجه الاستدلال

لكن كيف يمكن لمن كان في موقف الخليل ﷺ أن يعرف أن الكوكب إذا غاب يكون غائباً عن الخلق وغافلاً عنهم، فلا يكون من ثم رباً؟

إذا رجعنا إلى أصل القصة، فإن الخليل كان يبحث عن ربه الذي عرفه بفطرته الطاهرة، لكنه لم يتعرف عليه في الخارج. فلما توجه إلى الكوكب، ناجاه ودعاه، كما صح عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «فعبده حتى غاب»، والدعاء هو العبادة. لكن مناجاة الكوكب لم تثمر شيئاً طوال مدة ظهوره، إذ لم يجب الكوكب دعاء الخليل ولم يظهر منه ما يدل على صحة توجه الخليل له، بل بقي على حاله الذي كان عليه قبل أن يناجيه ويتوجه إليه. فلما غاب الكوكب ولم يجد الخليل أي استجابة منه، علم أنه ليس هو الرب الحقيقي، لأن عدم إجابة الكوكب طوال مدة ظهوره دليل على أن الكوكب غافل عن دعاء من يدعوه، وإذا كان غافلاً عنه لم يصح أن يكون رباً، كما قال تعالى: ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾. وهذا ما أشار إليه شيخ الإسلام رحمه الله حين قال: «والذين يعبدون ما سوى الله من الكواكب ونحوها ويتخذونها أوثاناً، يكونون في وقت البزوغ طالبين سائلين، وفي وقت الأفول لا يحصل مقصودهم ولا مرادهم»، ففيه إشارة إلى عدم استجابة الكوكب لدعاء من دعاه.

وإذا لم يستجب الكوكب للدعاء حال ظهوره ومشاهدته عياناً، فأولى ألا يستجيب إذا احتجب وغاب عن الأبصار، لوجهين:

الأول: أن الكوكب يشدّ المشاهد بنوره وعلوه، فيكون توجه الداعي إليه أكثر ما يكون في هذه الحال، فإذا غاب عن البصر ضعُف توجهه إليه وتضاءل أثره في نفسه. فإذا لم يستجب الكوكب مع صدق التوجه وشدة تعلق القلب به، فأولى ألا يستجيب إذا أفل واحتجب.

الثاني: أن الرب الحقيقي يريد هداية عباده إليه ودلالتهم عليه، والخليل كان يوقن بهذه الحقيقة مقدماً لقوله ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾، ومصداق ذلك في القرآن: ﴿إن علينا للهدى﴾ (الليل ١٢)، ﴿قل الله يهدي للحق﴾ (يونس ٣٥). فاستجابة الرب حال ظهوره واطلاعه على عباده دلالةٌ لهم عليه وإظهار لربوبيته. فلو كان الكوكب رباً لكان جديراً بأن يجيب من دعاه حينئذ، لأن مقام ظهوره أقوى مقامات البيان والدلالة، وهو وقت شدة تطلع الداعي وتوجهه نحوه، فلما لم يجب الكوكب في هذه الحال فأولى ألا يستجيب

حال الاحتجاب والمغيب.

وهذا هو نفس المنطق الذي استند إليه الخليل في إبطال ربوبية الأصنام حين خاطبها مستنكراً: ﴿ما لكم لا تنطقون﴾؟ (الصافات ٩٢)، وقال: ﴿فاسئلوهم إن كانوا ينطقون﴾ (الأنبياء ٦٣)، إذ عدم نطقها وجوابها لمن خاطبها عياناً دليل على غفلتها عنه أصلاً. وهي الحجة نفسها التي أنكر بها القرآن على عبدة العجل من بني إسرائيل حين قال: ﴿أفلم يروا ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً﴾؟ (طه ٨٩)، وقال: ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً﴾؟ (الأعراف ١٤٨). فلو كان رباً لرجع القول على من ناجاه ودعاه، ولكلمهم وهداهم لمطلوبهم. فلما لم يفعل مع مشاهدتهم له عياناً علم أنه أصم لا يسمع ولا يعي دعاء الداعين.

والمقصود أن الكوكب لما لم يُجب ولم يرجع القول حال المشاهدة والمعاينة حتى غاب عن البصر، فأولى ألا يجيب إذا غاب، فعُلم أنه كان غافلاً عن الدعاء أصلاً، فلا يمكن أن يكون رباً. فكان غياب الكوكب واحتجابه مع عدم إجابته إيذاناً وإعلاماً بعجزه عن الإجابة أصلاً، ومن ثم امتناع ربوبيته، ولهذا قال الخليل: ﴿لا أحب الآفلين﴾ لأن الأفول، كما تقدم، هو الانقطاع والاضمحلال، فبغياب الكوكب يكون الخليل قد يئس من إجابته، وتبين له بطلان ربوبيته، والله أعلم.

دعاء القمر والشمس

لكن عدم استجابة الكوكب لم يكن كافياً للحكم بأن ما عداه، كالقمر، سوف لن يستجيب. فلما كرر عليه السلام التجربة مع القمر، ووجد أنه أيضاً لا يستجيب، استبدت به الحيرة، ولذلك قال: ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾. فكانت آخر تجربة له مع الشمس، فهي كانت أكبر النجوم بالنسبة له، وأظهرها.[٦٧] فلو كان شئ منها رباً، لكانت هي.

---

[٦٧] قد يقال إن الشمس ليست هي أكبر النجوم في واقع الأمر، لكن هذا لا يؤثر على النتيجة، إذ يمتنع أن يكون الرب نجماً آخر ويرضى مع ذلك أن تكون الشمس أكثر ظهوراً لخلقه وأكثر نفعاً لهم منه، فهذا إضلال للخلق ينافي هداية الرب الحق لخلقه.

فلما وجدها أيضاً لا تستجيب، علم أن جميع النجوم والكواكب مربوبة مقهورة. فالكون إذن مربوب مخلوق، وإذا كان كذلك فلا بد له من رب مدبر. وإذا كان الكون يسير وفق نظام محكم متناسق، فلا بد أن يكون ربه واحداً. وإذا كان رب الكون واحداً فلا بد أن يكون هو الرب الذي كان يبحث عنه الخليل عليه السلام. أي أن الرب الذي دلت عليه الفطرة هو نفسه الذي دل عليه العقل، وهو رب السماوات والأرض.

وحين وصل الخليل عليه السلام لهذه النتيجة أعلن إيمانه بفاطر السماوات والأرض: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض﴾. فهو أثناء البحث كان توجهه إلى ربه، ولكن بحثه أداه إلى أن ربه هو في الحقيقة رب السماوات والأرض، سبحانه وتعالى. وهذا يناقض ما عليه قومه من الشرك في الربوبية، ولذلك قال: ﴿وما أنا من المشركين﴾، أي لست ممن يشرك بالله لا في الربوبية ولا في العبادة.

وبوصول إبراهيم لهذه النتيجة يكون الله تعالى قد استجاب له دعاءه بالهداية حين قال: ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾، خلافاً للكواكب التي لم تستجب له ولم تهديه، فهداه الله وبيّن له الحق وأنزل على قلبه اليقين، مصداق قوله تعالى ﴿وليكون من الموقنين﴾. فالرب الحق يستجيب لمن دعاه ويهدي للحق: ﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق؟ قل الله يهدي للحق. أفمن يهدي للحق أحق أن يُتبع أمن لا يهِدّي إلا أن يُهدى فما لكم كيف تحكمون﴾؟ (يونس ٣٥).

العلم المسبق بغياب الكواكب

وبذلك يتبين أن علم الخليل المسبق بأن الكواكب تغيب عادة هو الذي جعله يستنكر ربوبيتها. والسبب أن كلاً من الكوكب والقمر والشمس لم يستجب لإبراهيم عليه السلام بالرغم من الساعات التي قضاها في مناجاتها حال ظهورها. وإذا لم تستجب له، بل بقيت على حالها تماماً كما هي قبل أن يناجيها، علم أنها غافلة عن دعائه. فبقاء الكوكب على حاله، سواء دعاه أو لم يدعه، قبل مناجاته وبعد مناجاته، دون أن يستجيب بشيء، برهان جليّ أنه غافل عن الدعاء، كما قال تعالى: ﴿سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون. إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾ (الأعراف ١٩٣-١٩٤).

ويتبين بذلك أيضاً أن قصة الخليل مع الكواكب لم تكن مناظرة لقومه، كما يظن كثير من المتأخرين. فإن المناظرة تفقد أي قيمة لها مع علم قومه المسبق بأفول هذه الكواكب. وإنما تظهر قيمة القصة في عدم إجابة الكواكب لمن دعاها. وقوم إبراهيم كانت صلاتهم وعبادتهم للأصنام التي هي التماثيل، كما تقدم. والخليل قد رآها لا تستجيب لهم ولا تسمعهم، فأنكرها. لكن لم يكن قد تبين له بعد والله أعلم عدم استجابة الكواكب لمن دعاها مباشرة. فلما دعاها ووجد أنها لا تستجيب، علم أنها ليست هي ربه الذي يبحث عنه، وأن ربه الذي خلقه هو رب هذه الكواكب جميعاً. ومثل هذه النتيجة لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال مناجاة الكوكب ابتداء. وهذا ممتنع إذا كانت القصة على سبيل المناظرة. فتأويل القصة بأنها كانت على سبيل المناظرة يعود عليها بالإبطال، فهو قول متناقض.

بطلان تفسير الأفول بالحركة والتغير

ويتبين مما تقدم أيضاً بطلان قول المتكلمين بأن قوله تعالى ﴿لا أحب الآفلين﴾ يدل على امتناع التغير على الرب الحق. فهم يقولون: إن الخليل استدل على حدوث الكوكب والشمس والقمر بالأفول، والأفول هو الحركة، والحركة هي التغير، فلزم من ذلك أن كل متغير محدَث.[٦٨] ومدلول القصة عكس ذلك تماماً، فإن الاستجابة للداعي فعل، وهو حادث، فهو نوع من التغير. وعدم التغير، المتضمن لعدم الاستجابة، هو الذي دل إبراهيم على بطلان ربوبية الكوكب، وليس العكس كما يقول هؤلاء.

وهذا شأن العقائد الكلامية الباطلة: هي نقيض مقصود القرآن ونقيض دلالته. وصدق شيخ الإسلام حين قرر أنه ما من دليل يستدل به المبتدعة على بدعهم إلا كان هذا الدليل أدل على نقيض مطلوبهم منه على مطلوبهم. قال رحمه الله: «وقد كنتُ قديماً ذكرت في بعض كلامي أني تدبرت عامة ما يحتج به النفاة من النصوص، فوجدتها على نقيض قولهم أدل منها على قولهم»،[٦٩] والحمد لله رب العالمين.

---

[٦٨] انظر درء التعارض ١/ ١٠٠–١٠٣، الرد على المنطقيين ٣٠٤–٣٠٥.

[٦٩] درء التعارض ١/ ٣٧٤.

الابتداء في النظر بالكوكب

فإن قيل: لماذا ابتدأ الخليل النظر بالكوكب ولم يبدأ بالشمس، وهو يعلم مسبقاً أن الشمس أكبر من الكوكب؟

قد يقال: إنه بدأ بالكوكب لأن ظهوره كان وقت ابتداء نظره في الملكوت.[٧٠]

وقد يقال: إن الباحث عن الله تعالى في أول رحلة البحث يكون نور الإيمان في قلبه ضعيفاً مقارنة بحال كمال الإيمان عند نهاية الرحلة، ولذلك يميل فطرياً إلى الابتداء بالأضعف نوراً وهو الكوكب. فالكوكب أضعف نوراً من القمر ومن الشمس ولذلك ابتدأ النظر به. وصاحب الفطرة السليمة يكون عنده شئ من نور الإيمان، لكنه لا يكفي للإضاءة، كما قال تعالى: ﴿يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار﴾ (النور ٣٥)، فهو من صفائه ونوره يكاد يضئ، لكنه لم يبلغ أن يضئ بعد.

وقد يقال أيضاً: إن المرء قبل اكتمال الإيمان في قلبه يسود لديه الشعور بالضآلة البشرية والمحدودية الإنسانية، ولذلك قد يميل تلقائياً إلى الأقل حجماً وهو الكوكب. فالكوكب أصغر في عين الرائي من كل من القمر ومن الشمس ولذلك ابتدأ به النظر. وقد أشار لذلك في قوله عن الشمس: ﴿هذا ربي هذا أكبر﴾.

وعلى كل تقدير فهذا أمر اجتهادي، ولم نقف على إجابة قاطعة، سواء قيل إن الخليل كان ناظراً أو مناظراً، والله تعالى أعلم.

---

[٧٠] أشار الرازي في مفاتح الغيب (١٣ / ٤١) إلى أنه قد يكون اتفق بدء المناظرة لقومه عند الغروب.

(١٠)

المراد بالرب في قصة إبراهيم ﷺ

ظاهر كلام السلف أن الخليل أراد بقوله ﴿هذا ربي﴾ ربه الذي خلقه. ففي رواية ابن إسحاق: «إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لربي، ما لي إله غيره».[٧١]

وصرح به الإمام ابن خزيمة في كتابه التوحيد حيث قال: «وخليل الله إبراهيم عليه السلام عالمٌ في ابتداء النظر إلى الكواكب والقمر والشمس أن خالقه عال فوق خلقه حين نظر إلى الكواكب والقمر والشمس. ألا تسمع قوله: ﴿هذا ربي﴾، ولم يطلبْ معرفة خالقه من أسفل، إنما طلبه من أعلى مستيقناً عند نفسه أن ربه في السماء لا في الأرض».[٧٢]

وقد اعترض شيخ الإسلام على من زعم أن المراد به رب العالمين، واعتبر ذلك ضمن دعاوى المبتدعة. قال رحمه الله: «وقد ظن طائفة من الجهمية والمعتزلة وغيرهم أن مراده بقوله ﴿هذا ربي﴾ أن هذا خالق العالم، وأنه استدل بالأفول وهو الحركة والانتقال على عدم ربوبيته». قال: «هذا القول لم يقله أحد من العقلاء، لا قوم إبراهيم ولا غيرهم. ولا توهم أحد أن كوكباً أو القمر أو الشمس خلق هذا العالم. وإنما كان قوم إبراهيم مشركين، يعبدون هذه الكواكب زاعمين أن في ذلك جلب منفعة أو دفع مضرة، على طريقة الكلدانيين والكشدانيين وغيرهم من المشركين أهل الهند وغيرهم».[٧٣] وقال: «لكن الحق أن إبراهيم لم يقصد هذا، ولا كان قوله ﴿هذا ربي﴾ أنه رب العالمين، ولا اعتقد أحد من بني آدم أن كوكباً من الكواكب خلق السماوات والأرض، وكذلك الشمس والقمر. ولا كان المشركون قوم إبراهيم يعتقدون ذلك، بل كانوا مشركين بالله يعبدون الكواكب ويدعونها ويبنون لها الهياكل ويعبدون فيها أصنامهم،

---

[٧١] تفسير ابن جرير ٧/ ٢٤٩.

[٧٢] التوحيد ١/ ٢٦٤.

[٧٣] منهاج السنة ٢/ ١٩٣–١٩٤.

وهو دين الكلدانيين والكشدانيين والصابئين المشركين، لا الصابئين الحنفاء». قال: «وكان جامع دمشق وجامع حران وغيرهما موضع بعض هياكلهم، هذا هيكل المشتري، وهذا هيكل الزهرة. وكانوا يصلون إلى القطب الشمالي، وبدمشق محاريب قديمة إلى الشمال».[٧٤]

قلت: في بعض ما ذكره شيخ الإسلام نظر، فقد ذكر الشهرستاني في الملل والنحل أن من الصابئة من كان يعتقد أن الشمس هي إله الآلهة ورب الأرباب. قال عن الصابئة: «وهم يقولون بأن للعالم صانعاً حكيماً، ولا يمكن الوصول إلى جلاله ومعرفته وإنما يتقرب إليه بواسطة المقربين إليه وهم الروحانيون المطهرون ... ويعتقدون أن هؤلاء الروحانيين هم الأسباب المتوسطة في الاختراع والإيجاد وتصريف الأمور من حال إلى حال. كما يعتقدون أن الكواكب السبعة السيارة في أفلاكها هي هياكل للروحانيات، فلكل روحاني هيكل، ولكل هيكل فلك ... وكانوا يسمون الهياكل أرباباً آلهة، والله هو رب الأرباب وإله الآلهة. **ومنهم من جعل الشمس إله الآلهة ورب الأرباب**».[٧٥]

وقد أشار الحافظ ابن كثير إلى أن أهل بابل، وهم الذين ولد فيهم إبراهيم عليه السلام، كانوا أهل أوثان ويعبدون الأصنام، خلافاً لأهل حران الذين كانوا يعبدون الكواكب.[٧٦] فقول شيخ الإسلام أن قوم إبراهيم كانوا يعبدون الكواكب محل نظر.

الشرك في قوم إبراهيم عليه السلام

وقد تقدم أن القرآن يدل على أن قوم إبراهيم اجتمع فيهم شركان: شرك في الربوبية، وشرك في الإلهية. فشرك الربوبية هو اعتقادهم أن الكواكب تنفع وتضر، وأنها أرباب مع الله، ودل على ذلك قوله تعالى: ﴿فنظر نظرة في النجوم. فقال إني سقيم﴾ (الصافات ٨٨-٨٩)، ففيه دلالة على أنهم كانوا يعتقدون بتأثير النجوم في الكون، وهذا شرك في الربوبية.

وأما شرك الإلهية، فهو عبادتهم الأصنام، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿واتل عليهم

---

[٧٤] الفتاوى ٥/٥٤٨-٥٤٩.

[٧٥] الملل والنحل ٢/٤٩، وانظر ٢/٥٣.

[٧٦] البداية والنهاية، ت التركي، ١/٣٣١.

نبأ إبراهيم. إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون؟ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين﴾ (الشعراء ٦٩-٧١). وقوله: ﴿أتتخذ أصناماً آلهة؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾، فدل على أنه وقومه كانوا يعبدون الأصنام. وقوله: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين. إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟﴾ (الأنبياء ٥١-٥٢). وقد فسر ابن عباس رضي الله عنه العكوف بأنه «الصلاة لأصنامهم».[٧٧] وقوله تعالى: ﴿آتعبدون ما تنحتون﴾؟ (الصافات ٩٥). وهذا لا يتفق مع ما ذكره شيخ الإسلام من أنهم كانوا يعبدون الكواكب، وربما أراد كانوا يعتقدون ربوبيتها والله أعلم.

وإبراهيم عليه السلام، قبل بعثته، كان قد تبين له بطلان عبادة الأصنام، فهو يراها لا تنفع قومه حين يدعونها ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر، ولذلك أنكر عليهم بقوله: ﴿إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾. لكن لم يكن قد تبين له بعد أن الكواكب لا تنفع ولا تضر إذ لم ير قومه يتوجهون إليها كما توجهوا للأصنام. والخليل عليه السلام كان يدرك بفطرته الطاهرة أن له رباً هو المستحق للعبادة، لكنه لم يصل إلى تعيينه في الخارج بعد. ثم بعد مناجاة الكوكب والقمر والشمس، تبين له أن أياً من هذه الكواكب لا يصلح أن يكون رباً أصلاً، وإنما هي مربوبة مقهورة، وأن الرب الحق هو الذي خلقها وخلق الفلك الذي تسير فيه، فهو خالق السماوات والأرض جميعاً.

فالخليل أراد بقوله ﴿هذا ربي﴾ ربه الذي خلقه والمستحق لأن يعبده، وليس في السياق ما يدل أنه أراد به رب العالمين، وإضافة الرب إليه في كل المواضع من القصة في قوله ﴿ربي﴾ يؤكد ذلك. فلو كان يبحث عن رب العالمين لقال: هذا الرب، أو هذا رب العالمين. فلا تعارض إذن بين قول ابن خزيمة وقول ابن تيمية.

اعتراض وجوابه

فإن قيل: فهذا الرب الذي بحث عنه إبراهيم إما أنه اعتقد أنه رب العالمين أو لا. فإن كان كذلك توجه اعتراض شيخ الإسلام السابق. وإن لم يكن يعتقد أنه رب العالمين، وأن ربَ العالمين غيرُه، كان دعاء إبراهيم للكوكب شركاً ولا بد، لأنه دعا وسيطاً دون الله، ولم يعد

---

[٧٧] تفسير ابن جرير، سورة الشعراء آية ٧١.

هناك معنى لمخالفته لقومه واستنكاره عليهم.

فالجواب، والله أعلم، أن الاعتقاد السائد لدى قوم إبراهيم كان تعدد الأرباب، كما تقدم. فمعتقدهم في رب الأرباب كان معتقداً فاسداً لأنهم يثبتون له شركاء في الملك والتدبير والتصريف، وكان ذلك مما استنكره عليهم فيما بعد: ﴿فما ظنكم برب العالمين؟﴾ (الصافات ٨٧). ولأنهم لا يتوجهون إليه ولا إلى الأرباب مباشرة بل يعبدون الأصنام والتماثيل التي بنوها لهم. فهذا التصور للصانع تصور مدخول ولذلك أعرض عنه جملة، وانطلق من الحقيقة الثابتة التي يجدها في قلبه: أن له رباً هو الذي خلقه وهو الذي يهديه وهو المستحق لأن يعبده دون سواه. ثم تبين له فيما بعد أن الرب الذي تدل عليه الفطرة هو رب السماوات والأرض الذي يدل عليه العقل، وأنه أحدٌ فردٌ لا شريك له مطلقاً وليس كما يعتقد قومه في رب الأرباب. ولذلك كانت عبارته أثناء البحث بضمير المتكلم ﴿هذا ربي﴾، وبعد الاهتداء لم يقل: عرفت ربي أو توجهت لربي، بل قال: ﴿وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض﴾. فالتصور الذي انتهى إليه إبراهيم عن رب العالمين يباين تصور قومه عن رب الأرباب.

فظاهر الآيات أنه انطلق من دليل الفطرة الذي دله على توحيد ربه الذي خلقه، وانتهى إلى دليل العقل الذي دله على توحيد خالق السماوات والأرض. فاجتمع لدى الخليل دليل الفطرة ودليل العقل، وهذا هو الرشد الذي آتاه الله إياه في قوله ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل﴾، كما سيأتي.

أي أن الخليل ابتدأ من الضرورة الفطرية التي استقرت في قلبه من أن له رباً، لكنه بحسب سياق الآيات لم ينطلق من أن الكون من حوله لا بد له من خالق. فانطلاق إبراهيم من نفسه قبل أن ينطلق من الكون يتفق مع حقيقة أن الإنسان يعرف نفسه أكثر من غيرها من المخلوقات ويستشعر ضرورة الإيمان بربه من نفسه قبل غيره، وأن هذه البداية من ثم أقرب إلى الفطرة، ولذلك بدأ بها. يقول جعفر شيخ إدريس: «فعلم الإنسان مثلاً بأنه مفتقر إلى من يوجده ويحدثه أسبقُ عنده وأبدَهُ من أن يستدل عليه بقضية كَلية تقول له إنك حادث وكل حادث لا بد له من محدث».[٧٨] ثم نقل عن شيخ الإسلام قوله: «فليس العلم بحكم المعينات مستفاداً من

---

[٧٨] الفيزياء ووجود الخالق، ٤٧ .

الحكم الكلي الشامل لها، بل قد يكون العلم بحكم المعين في العقل قبل العلم بالحكم الكلي العام».[٧٩] وقال شيخ الإسلام أيضاً: «العلم بأن المحدَث لا بد له من محدث هو علم فطري ضروري في المعينات الجزئية، وأبلغ مما هو في القضايا الكلية».[٨٠] وقال: «والعلم بالجزئيات أسبق إلى الفطرة، فجزم الفطرة بها أقوى. ثم كلما قوي العقل اتسعت الكليات».[٨١]

وهذا التدرج في مستويات النظر أشار إليه القرآن في غيرما موضع. قال تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت﴾ (الغاشية ١٧-١٨)، فابتدأ بالإبل قبل السماء، لأنها أقرب إلى المخاطبين. وقال تعالى: ﴿أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون * أم خلقوا السماوات والأرض؟ بل لا يوقنون﴾ (الطور ٣٤-٣٥). فقدم السؤال عن خلق أنفسهم على السؤال عن خلق السماوات والأرض، لأن إدراك الإنسان لافتقاره إلى الخالق أسبق وأبده من إدراكه لافتقار السماوات والأرض.

وقال تعالى ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم: ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾ (الروم ٨). فأمرهم بأن يتفكروا في أنفسهم وما فيها من العجائب، وأن ذلك لا يمكن أن يكون عبثاً. ونبه إلى أن هذا التفكر يقود إلى العلم أن السماوات والأرض لم تخلق عبثاً، وإنما بالحق وأجل مسمى، لأن الإنسان مرتبط بالكون ارتباطاً وثيقاً، فإذا كان خلقه لحكمة وغاية، فكذلك السماوات والأرض، فلا بد إذن من يوم للجزاء والحساب.[٨٢] وهذا نظير قوله تعالى: ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا: ما بصاحبكم من جنة﴾ (سبأ ٤٦). فقوله ﴿ما بصاحبكم من جنة﴾ هو نتيجة التفكر المأمور به. وهكذا هنا، فقوله تعالى: ﴿ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ هو نتيجة التفكر في الأنفس. فجعل التفكر في الأنفس طريقاً للعلم بحقائق الكون وغايته، وهذا نفس ما دلت عليه قصة إبراهيم عليه السلام.

---

[٧٩] الفتاوى ٢/١١، وانظر: ٩/١٤٣.

[٨٠] الفتاوى ١/٤٧.

[٨١] الفتاوى ٩/١١٥، الرد على المنطقيين، ١١٥-١١٦.

[٨٢] تفسير ابن جرير ٢١/٢٤، تفسير الرازي ٢٥/٨٧.

وقد يرد على ذلك أن الله تعالى قدم دليل الآفاق على دليل الأنفس في قوله تعالى ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ (فصلت ٥٣). لكن هناك فرقاً بين الموضعين، كما نبه على ذلك الرازي رحمه الله.[٨٣] فآية فصلت رتبت الأدلة بحسب الآيات التي خلقها الله تعالى. ولا ريب أن آية السماوات والأرض أكبر من النفس البشرية، كما قال تعالى ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (غافر ٥٧). ولكن لأن أكثر الناس لا يعلمون فهو ينبههم على ما هو أيسر لهم وأوضح وهو خلق أنفسهم. فآيات الآفاق مقدمة في ذاتها على آيات الأنفس. وآيات الأنفس مقدمة في قربها من الإنسان وسهولة علمه بها على آيات الآفاق، والعلم عند الله تعالى.

والمقصود أن علم المرء بوجود ربه سابق على نظره في الكون واستنتاجه من ذلك أن للكون رباً خالقاً لا شريك له. فانطلاق الخليل من علمه بوجود ربه، ثم توصله لاحقاً إلى أن ربه هو في حقيقة الأمر رب العالمين لم يكن عن إنكار لرب العالمين ابتداء، حاشاه من ذلك، بل مرده الابتداء بمقتضى الفطرة، وهو ما أدى به لاحقاً إلى الإيمان برب العالمين.

توحيد الخليل وتوجهه إلى الرب الحق دون واسطة

والآيات تدل دون شك على أن إبراهيم لم يتوجه إلا إلى الرب الحق المستحق لأن يعبده دون من سواه، وليس إلى إله وسيط يقربه من الرب الحق على غرار عقيدة الشرك، فقد كان موحداً من أول لحظة، ودلالة السياق على ذلك من وجوه:

منها: أنه عليه السلام ذكر الآلهة بصيغة الجمع: ﴿أتتخذ أصناماً آلهة﴾، وذكر الرب بصيغة المفرد: ﴿هذا ربي﴾، فدل على أنه أنكر تعدد الآلهة، وآمن أن ربه الذي يرعاه ويتعاهده رب واحد. فهو عليه السلام كان موحداً لربه منذ البداية.

ومنها: أن الخليل عليه السلام فرق بين الآلهة وبين الرب، فاستعمل الأول في وصف الأصنام: ﴿أتتخذ أصناماً آلهة﴾، واستعمل لفظ الرب في بقية القصة. والفرق ثابت بين لفظ

---

[٨٣] التفسير، ٢٥ /٨٧–٨٨.

الإله ولفظ الرب، فالإله هو المعبود، والرب هو المدبر المالك. فهو عليه السلام أنكر أن تكون الأصنام آلهة ولم يحتج أن ينفي عنها صفة الربوبية، لأنها إذا لم تكن آلهة فليست أرباباً من باب أولى، فنفي الألوهية يستلزم نفي الربوبية. ولو كان الخليل يبحث عن إله وسيط لقال: هذا إلهي، ولم يقل: هذا ربي. فلما استعمل لفظ الربوبية دل على أنه كان يبحث عن الرب الحق دون واسطة بينه وبينه.

ومنها: أن الخليل قال ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾. فهو هنا آمن بربه قبل أن يراه، وبعد إنكاره لعبادة الأصنام وبعد إنكاره لربوبية الكوكب والقمر. فدل على أنه أراد بالرب هنا ما عرفه بفطرته، وأنه هو الرب الذي يهدي إلى الحق فهو المستحق للعبادة. وإذا كان وصف الرب في هذه الآية يراد به الرب الحق، فكذلك وصف الرب في قوله ﴿هذا ربي﴾، لضرورة السياق، فلا يصح أن يكون المراد بقوله ﴿هذا ربي﴾ أي هذا يصلح أن يكون وسيطاً يعبد دون الرب الحق الذي يهدي عباده والذي عرفه بفطرته. فاللفظ في الموضعين واحد، والسياق واحد أيضاً، فالتفريق بينهما في المعنى تحكم بلا دليل.

ومنها: أن الخليل انتقد ربوبية الكوكب لأنه من الآفلين. والأفول نقص لا يليق بالرب الحق، لكنه لا يمتنع على الآلهة الوسيطة التي يتخذها المشركون من دون الله. فالمشرك يعترف بنقص الآلهة. فإذا كان الأفول يستلزم بطلان عبادة الكوكب، دل على أن المقصود بالعبادة أصلاً هو الرب الحق، وليس الآلهة الوسيطة.

ومنها: أن إبراهيم لم يعرض عن الأصنام ويقبل على الكواكب إلا لأسباب وجيهة، أشار إليها ابن عقيل[٨٤] وابن نجم الحنبلي[٨٥] وابن الوزير.[٨٦] فالكواكب أولاً علوية، والمرء مفطور على الإيمان بعلو الرب سبحانه، وبذلك استدل ابن خزيمة على إثبات الخليل لصفة العلو لله تعالى، كما تقدم. ثانياً: أنها منيرة مضيئة، والنور صفة كمال تليق بالرب سبحانه. ثالثاً: أنها سابقة في الوجود على الإنسان، فهي أقدم منه. والرب الحق هو الأول، فليس قبله شئ. ولا

---

[٨٤] الفنون (١ / ٣٢١).

[٨٥] استخراج الجدل، ص ٦٥.

[٨٦] البرهان القاطع، ص ٥٨.

يستطيع الإنسان بالعين المجردة أن يستنتج حدوث الكواكب، بل يحتاج إلى نظر وتأمل. وهذا ما حصل من إبراهيم، فإنه لما رآها لا تستجيب، ولا تدفع عن نفسها نقص الأفول، استنتج أنها مربوبة، فهي إذن مخلوقة وليست خالقة، فلا تصلح أن تكون رباً. فتوجه الخليل للكواكب ينسجم مع البحث عن الرب الحق وليس عن إله وسيط من دون الله.

فتحصل مما تقدم أن الخليل عليه السلام كان موحداً من أول رحلته الإيمانية، وكان مستنكراً للشرك معرضاً عنه منذ أن أنكر على أبيه وقومه عبادة الأصنام، والحمد لله رب العالمين.

(١١)

أدلة المنكرين للنظر والجواب عنها

الأول: عصمة الأنبياء قبل البعثة

قالوا إن النبي لا يجوز أن ينتفي عنه التوحيد والإيمان قبل البعثة، لوجوه:

(١) أن الكفر والشرك مفسد للفطرة التي هي الإسلام، وإذا كان كل مولود يولد على الفطرة، فالنبي أولى وأحق بذلك.[٨٧]

(٢) أنه لو صار نبياً بعد أن كان على دين قومه لكان في ذلك ذريعة لقومه المشركين في الطعن فيه والقدح في رسالته.

(٣) انعقاد الإجماع على ذلك، حكاه صاحب المواقف، كما نقله القاسمي،[٨٨] وكذا التفتازاني في شرح العقائد كما حكاه ملا علي القاري.[٨٩]

والجواب من وجوه:

١. أنه ليس في الكتاب ولا في السنة ولا في أقوال سلف الأمة، فضلاً عن إجماعهم، ما يدل على أن النبي يجب أن يكون موحداً قبل البعثة. فهذا القول إن كان اجتهاداً فهو منقوض بمثله، وبما نقل عن السلف أن إبراهيم ﷺ كان ناظراً. بل إن عبارة الإمام ابن جرير رحمه الله في التفسير: «وأنكر قوم **من غير أهل الرواية** هذا القول الذي روي عن ابن عباس» تدل على

---

[٨٧] احتج بذلك ابن كثير في تفسيره ٢/ ١٥٢ في حق الخليل، والحجة صالحة لكل الأنبياء عليهم السلام.

[٨٨] في تفسيره ٧/ ٢١٠، سورة الأعراف ٨٩.

[٨٩] في شرح الشفا ٢/ ٢٠٠.

نقيض ذلك.

٢. أن أئمة أهل السنة نصوا على أن النبي لا يجب أن يكون موحداً قبل البعثة. وسأنقل فيما يلي أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من كتبه المتعددة لتوضيح هذا الموقف، مع ما يتيسر من أقوال غيره من أهل العلم.

الخلاف في العصمة من الكفر قبل البعثة

قال شيخ الإسلام رحمه الله:[٩٠] «وأما العصمة (يقصد عصمة الأنبياء) في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة، فللناس فيه نزاع، هل هو ثابت بالعقل أو بالسمع؟ ومتنازعون في العصمة من الكبائر والصغائر أو من بعضها؟ أم هل العصمة إنما هي في الإقرار عليها لا في فعلها؟ أم لا يجب القول بالعصمة إلا في التبليغ فقط؟ **وهل تجب العصمة من الكفر والذنوب قبل المبعث أم لا؟**»

ونقل عن القاضي أبي بكر الباقلاني تجويز الكفر قبل النبوة عقلاً. قال الشيخ: «قال أبو بكر بن الطيب (الباقلاني): «وقال كثير منهم [أي من المعتزلة] ومن أصحابنا وأهل الحق: إنه لا تمتنع بعثة من كان كافراً أو مصيباً للكبائر قبل بعثته. قال: ولا شئ عندنا يمنع من ذلك».[٩١]

وحكى القاضي عياض الخلاف في ذلك فقال بعد أن ذكر امتناع الشرك على النبي ﷺ بعد النبوة: «وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوة فللناس فيه خلاف. والصواب أنهم معصومون قبل النبوة عن الجهل بالله تعالى وصفاته أو التشكك في ذلك».[٩٢]

وقال في شرح مسلم: «واختُلف فيه [أي الكفر] قبل النبوة، والصحيح أنه لا يجوز».[٩٣]

وقال العلامة محمد بن الوزير: «فلما كان الأمر كذلك، ولم يرد في حكمهم قبل النبوة نصٌ يرجع إليه ولا إجماع يعتد به: ذهب القاضي أبو بكر الباقلاني وكثير من الأشعرية وكثير

---

[٩٠] في الفتاوى (١٠/ ٢٩٢-٢٩٣).

[٩١] تفسير آيات ١/ ١٨٦.

[٩٢] الشفا بشرح القاري ٢/ ٢٠٠.

[٩٣] كتاب الإيمان من شرح مسلم، ت حسين شواط ٢/ ٨٤٨.

من المعتزلة إلى أنه لا دليل قاطع يدل على عصمتهم عليهم السلام قبل النبوة، مع اعترافهم أن الأنبياء عليهم السلام كانوا قبل النبوة في أرفع مراتب الفضل والكمال، لكن قالوا إن ذلك كان منهم كما كان من أفاضل المسلمين من غير دليل قاطع يدل على العصمة».[٩٤] وقال أيضاً في سياق الرد على القول بأنه كان مناظراً: «فإن الخطأ يجوز على الأنبياء عليهم السلام في غير التبليغ بالإجماع».[٩٥]

وبذلك يتبين أن الإجماع الذي نقله صاحب المواقف إنما عنى به إجماع متأخري الأشاعرة، وإلا فمن أئمة الأشاعرة من قال بخلاف هذا القول، كالقاضي الباقلاني وغيره، كما نقله شيخ الإسلام وابن الوزير. ونقل في شرح المقاصد الاتفاق على نفي وقوع الشرك، وليس جوازه، قال: «لم يقل أحد في حق الأنبياء بالشرك في الألوهية ولو قبل البعثة». لكنه نص على جواز أن يكون الخليل في قوله ﴿هذا ربي﴾ ناظراً قبل البعثة.[٩٦] فليس في المسألة إجماع في الحقيقة، ولو وجد لكان إجماع السلف على جواز الوقوع، كما أشار إليه ابن جرير رحمه الله.

شبهة النقص بسبب الكفر حتى مع التوبة

قال شيخ الإسلام:[٩٧] «وبهذا يظهر جواب شبهة من يقول: إن الله لا يبعث نبياً إلا من كان معصوماً قبل النبوة كما يقول ذلك طائفة من الرافضة وغيرهم. **وكذلك من قال إنه لا يبعث نبياً إلا من كان مؤمناً قبل النبوة.** فإن هؤلاء توهموا أن الذنوب تكون نقصاً وإن تاب التائب منها، وهذا منشأ غلطهم. فمن ظن أن صاحب الذنوب مع التوبة النصوح يكون ناقصاً فهو غالط غلطاً عظيماً، فإن الذم والعقاب الذي يلحق أهل الذنوب لا يلحق التائب منه شئ أصلاً. ...

قال: «**والتائب من الكفر والذنوب قد يكون أفضل ممن لم يقع في الكفر والذنوب، وإذا**

---

[٩٤] الروض الباسم، ت علي العمران، ١/٢٤٢.

[٩٥] البرهان القاطع، ص ٥٨.

[٩٦] شرح المقاصد ٦/٥٣-٥٤.

[٩٧] في الفتاوى ١٠/٣٠٩.

كان قد يكون أفضل فالأفضل أحق بالنبوة ممن ليس مثله في الفضيلة».[٩٨]

قال: «**ومن اعتقد أن كل من لم يكفر ولم يذنب أفضل من كل مَن آمن بعد كفره وتاب بعد ذنبه فهو مخالف لما علم بالاضطرار من دين الإسلام**. فإنه من المعلوم أن الصحابة الذين آمنوا برسول الله ﷺ بعد كفرهم وهداهم الله بعد ضلالهم، وتابوا إلى الله بعد ذنوبهم، أفضل من أولادهم الذين ولدوا على الإسلام. وهل يشبِّه بني الأنصار بالأنصار أو بني المهاجرين بالمهاجرين إلا من لا علم له؟ **وأين المنتقل بنفسه من السيئات إلى الحسنات بنظره واستدلاله وصبره واجتهاده، ومفارقته عاداته، ومعاداته لأوليائه، وموالاته لأعدائه، إلى آخَر لَم يكن له مثل هذه الحال؟**».[٩٩]

شبهة الثقة في التبليغ

وقال رحمه الله: «**وأما وجوب كونه قبل أن يبعث نبياً لا يخطئ أو لا يذنب، فليس في النبوة ما يستلزم هذا. وقول القائل: لو لم يكن كذلك لم تحصل الثقة فيما يبلغونه عن الله: كذب صريح**. فإن من آمن وتاب حتى ظهر فضله وصلاحه ونبأه الله بعد ذلك، كما نبأ إخوة يوسف ونبأ لوطاً وشعيباً وغيرهما، وأيده الله بما يدل على نبوته، فإنه يوثق فيما يبلغه، كما يوثق بمن لم يفعل ذلك. وقد تكون الثقة به أعظم إذا كان بعد الإيمان والتوبة قد صار أفضل من غيره. والله تعالى أخبر أنه يبدل السيئات بالحسنات للتائب، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح.»[١٠٠]

الأدلة على عدم اشتراط التوحيد قبل البعثة

ومما استدل به رحمه الله على جواز عدم إيمان النبي قبل البعثة قوله تعالى في قصة شعيب ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين؟ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا

---

[٩٨] الفتاوى ١٠ / ٣١٠.

[٩٩] منهاج السنة ٢ / ٣٩٨.

[١٠٠] منهاج السنة ٢ / ٣٩٦–٣٩٧.

الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شئ علماً على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ (الأعراف ٨٨-٨٩). وقوله تعالى ﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودُن في ملتنا﴾ (إبراهيم ١٣).[١٠١]

قال الإمام ابن جرير رحمه الله: «﴿أو لتعودُن في ملتنا﴾ يقول: لترجعن أنت وهم في ديننا وما نحن عليه، قال شعيب مجيباً لهم: ﴿أولو كنا كارهين؟﴾ ... ﴿قد افترينا على الله كذباً﴾ يقول: قد اختلقنا على الله كذباً وتخرصنا عليه من القول باطلاً إن نحن عدنا في ملتكم فرجعنا فيها بعد إذ أنقذنا الله منها بأن بصرنا خطأها وصواب الهدى الذي نحن عليه، يكون لنا أن نرجع فيها فندين بها ونترك الحق الذي نحن عليه».[١٠٢]

قال شيخ الإسلام: «ظاهره دليل على أن شعيباً والذين آمنوا معه كانوا على ملة قومهم لقولهم: ﴿أو لتعودن في ملتنا﴾ ولقول شعيب: ﴿أن نعود فيها﴾ وقوله ﴿أولو كنا كارهين﴾ ولقوله ﴿قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم﴾ فدل على أنهم كانوا فيها، ولقوله ﴿بعد إذ نجانا الله منها﴾. فدل على أن الله أنجاهم منها بعد التلوث بها. ولقوله ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾ ولا يجوز أن يكون الضمير عائداً على قومه لأنه صرح فيه بقوله ﴿لنخرجنك يا شعيب﴾ ولأنه هو المحاور له بقوله (أولو كنا) إلى آخرها، وهذا يجب أن يدخل فيه المتكلم. ومثل هذا في سورة إبراهيم ﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾ الآية».[١٠٣]

قلتُ: وقد أقر القائلون بالعصمة قبل البعثة بأن هذا هو دلالة ظاهر الآيات. قال الآلوسي: «والمتبادر من العَود الرجوع إلى الحالة الأولى، وهذا مما لا يمكن في حق شعيب عليه السلام لأن الأنبياء معصومون عما دون الكفر بمراتب». ثم تكلف تأويل الآية بأنه من باب التغليب وأن المراد هو أتباع شعيب، وأن العَود قد يأتي بمعنى الصيرورة «كما أثبته بعض النحاة واللغويين،

---

[١٠١] انظر منهاج السنة ٢/٤٢٢.

[١٠٢] تفسير ابن جرير ٩/١.

[١٠٣] الفتاوى ١٥/٢٩.

فلا يستدعي العود إلى حالة سابقة».[١٠٤]

وقد صدق شيخ الإسلام رحمه الله حين اعتبر هذه الآية مما أشكل على كثير من أهل العلم، ولذلك ذكرها في كتاب «تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير القول الصواب، بل لا يوجد إلا ما هو خطأ». وفيه ناقش الشيخ أقوال المفسرين وتوسع في بيان وجه الحق في الآية بما لا يوجد فيما أعلم في كتاب آخر. وها أنذا أنقل باختصار وتصرف خلاصة كلامه.

قال رحمه الله:[١٠٥] «قد تنازع المفسرون في معنى «العود إلى ملّتهم» على قولين:

أحدهما، وهو الذي وجودتُه منقولاً عن مفسري السلف، ما ذكر في تفسير عطية عن ابن عباس، وينقل منه عامة المفسرين، قال: «كانت الرسل والمؤمنون يستضعفهم قومهم ويقهرونهم ويدعونهم للعَود في ملته، فأبى الله لرسوله والمؤمنين أن يعودوا في ملتهم وهي ملة الكفر، وأمرهم أن يتوكلوا عليه».

الثاني: لتصيرن إلى ملتنا، فوقع القول على معنى الابتداء، كما يقال: عاد عليّ من فلان مكروه، أي لحقني منه ذلك، وإن لم يكن سبق منه مكروه. قال الشاعر:

فإن تكن الأيام أحسنّ مرة *** إليّ فقد عادت لهن ذنوب
ومثله قول أمية:
تلك المكارم لا قَعبانِ من لبَن *** شِيبا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا»

قال شيخ الإسلام: «ما ذكروه لا يشهد لمعنى الآية فإن لفظها ﴿لتعودن في ملتنا﴾ وقول شعيب ﴿قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم﴾... وهذا كقول النبي ﷺ «العائد في هبته كالعائد في قيئه، ليس لنا مثل السوء»، وقوله: «ومن كان يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»، وقوله تعالى ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما

---

[١٠٤] روح المعاني ٩/ ٢.

[١٠٥] تفسير آيات ١/ ١٦٠-٢٣٨.

نهوا عنه﴾، وقوله ﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا﴾ واللفظ في مثل هذا صريح بالعود إلى أمر كان عليه الرسل وأتباعهم، لا يحتمل غير ذلك. لكن إذا قال عاد لذا، فهو فَعل مثل ما كان منه أولاً. وأما قوله: فقد عادت لهن ذنوب، وعادا بعد أبوالا، فتلك أفعال مطلقة ليس فيها أنه عاد لكذا ولا عاد فيه. ولفظ العود: الرجوع، وهو يقتضي رجوعاً إلى شئ، ورجوعاً عن شئ.

قال: «وأما قولهم: إن شعيباً والرسل ما كانوا في ملتهم قط، وهي ملة الكفر، فهذا فيه نزاع مشهور. وبكل حال فهذا خبر يحتاج إلى دليل سمعي أو عقلي، **وليس في أدلة الكتاب والسنة والإجماع ما يخبر بذلك**. وأما العقل ففيه نزاع. والذي عليه نظار أهل السنة أنه ليس في العقل ما يمنع ذلك، وهذه مسألة تنازع فيها المتأخرون من المنتسبين إلى السنة والحديث، والمعتزلة.»

قال: «وكثير من أهل السنة يقولون إن الأنبياء معصومون من الكفر قبل النبوة، كما قال ذلك ابن الأنباري والزجاج، وابن عطية وابن الجوزي والبغوي. قال البغوي: "وأهل الأصول على أن الأنبياء كانوا مؤمنين قبل الوحي، وكان النبي ﷺ يعبد الله قبل الوحي على دين إبراهيم، ولم تبين له شرائع دين" ». قلت (القائل شيخ الإسلام): وهذا يناقض ما ذكره (يريد البغوي) في قوله ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ قال [البغوي]: "ومعنى الآية وجدك ضالاً عما أنت عليه اليوم فهداك لتوحيده والنبوة». فجعل التوحيد مما كان ضالاً عنه فهداه إليه."

قال: «وأيضاً فقوله تعالى ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ يناقض هذا. وقد روي عن أحمد أنه قال «من قال إن النبي ﷺ كان على دين قومه فهو قول سوء»، ولكن قد قال السدي وغيره: «كان على دين قومه أربعين سنة» (انظر تفسير الطبري ٣٠/ ٢٣٢). وقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن جبير بن مطعم قال: «لقد رأيت رسول الله ﷺ وهو على دين قومه وهو واقف على بعير له بعرفات بين قومه يدفع مع الناس توفيقاً من الله له».

قال الشيخ: «قال أبو بكر بن الطيب (الباقلاني): "وقال كثير منهم (أي من المعتزلة) ومن أصحابنا وأهل الحق: إنه لا تمتنع بعثة من كان كافراً أو مصيباً للكبائر قبل بعثته. قال: ولا شئ عندنا يمنع من ذلك."

تحقيق القول في عصمة الأنبياء قبل البعثة

قال شيخ الإسلام: «قلت: المقصود بما ذكر خلاف الناس في هذا الأصل، وأما تحقيق القول فيه: فالله إنما يصطفي لرسالته من كان [من] خيار قومه، بل قد يبعث النبي من أهل بيت ذي نسب طاهر. **ومن نشأ بين قوم مشركين جهال لم يكن عليه منهم نقص ولا بغض ولا غضاضة إذا كان على مثل دينهم إذا كان معروفاً عندهم بالصدق والأمانة** وفعلِ ما يعرفون وجوبه واجتناب ما يعرفون قبحه. وفرق بين من يرتكب ما علم قبحه وبينَ من يفعل ما لم يعرف، فإن هذا الثاني لا يذمونه ولا يعيبون عليه، ولا يكون ما فعله مما هم عليه منفراً عنه، بخلاف الأول.

قال: «وأما ما ذكره سبحانه في قصة شعيب والأنبياء فليس في هذا ما ينفر أحداً عن القبول منهم، وكذلك الصحابة الذين آمنوا بالرسول ﷺ بعد جاهليتهم. فقد تبين أن ما أخبر عنه قبل النبوة في القرآن من أمر الأنبياء ليس فيه ما ينفر أحداً عن تصديقهم ولا يوجب طعن قومهم فيهم، ولهذا لم يذكر أحد من المشركين هذا قادحاً في نبوتهم، ولو كانوا يرونه عيباً لعابوه، ولقالوا: أنتم كنتم أيضاً معنا على الحالة المذمومة. ولو ذكروا للرسل هذا قالوا: كنا كغيرنا لم نعرف ما أوحي به إلينا: ﴿قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا﴾ فقالت الرسل: ﴿إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾.

«وقد اتفقوا كلهم على جواز بعثة رسول لم يعرف ما جاءت به الرسل قبله من أمور النبوة والشرائع، ومن لم يقر بهذا الرسول بعد الرسالة فهو كافر. والرسل قبل البعثة لا تعلم هذا، فضلاً عن أن تقر به. فعُلم أن عدم هذا العلم والإيمان لا يقدح في نبوتهم.

قال: «وقد كان إبراهيم الخليل قد تربى بين قوم كفار ليس فيهم من يوحد الله، وآتاه الله رشده وآتاه من العلم والهدى ما لم يكن فيهم. ... وموسى لما أرسله الله لفرعون قال له فرعون: ﴿ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين. وفعلت فَعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين؟ قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين﴾.

القول في حال نبينا ﷺ قبل البعثة

«وقال تعالى لخاتم الرسل: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا

القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ وهذه إن المخففة من الثقيلة، قد دخلت في خبرها اللام الفارقة، ليست النافية كما يظنه من لا يفهم العربية ولا معاني القرآن.

«وقال تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ وقال ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾ وقال ﴿ماكنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾. وقد تنازع الناس في حال نبينا ﷺ قبل النبوة وفي معاني بعض هذه الآيات. فقال قوم: لم يكن النبي ﷺ على دين قومه، ولم يأكل ذبائحهم، وهذا هو المنقول عن أحمد بن حنبل. القول الثاني: إطلاق القول بأنه ﷺ كان على دين قومه، وتفسير ذلك بما كانوا عليه من بقايا دين إبراهيم، لا بالموافقة لهم على شركهم.

ثم قال شيخ الإسلام في قوله تعالى ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾: «والضلال يختلف، فمنه القريب ومنه البعيد. فالبعيد: ضلال الكفار. **فكان هذا الضلال الذي ذكره الله لنبيه أقربَ الضلال، وهو كونه واقفاً لا يميز بين المهيع، لا أنه تمسك بطريق آخر، بل كان يرتاد وينظر.**»

قال: «والمنقول أنه عليه السلام كان قبل النبوة يبغض الأصنام، **ولكن لم يكن ينهى عنها الناس نهياً عاماً**، وإنما كان ينهى خواصه، كما روى أبو يعلى بإسناده (الحسن) – وساق الحديث وفيه أنه ﷺ نهى زيد بن حارثة عن التمسح بإساف ونائلة وكان ذلك قبل المبعث – وكان الله قد نزهه عن الأعمال المنكرة أعمال الجاهلية، وكانوا يسمونه الصادق الأمين، ولم يعرف منه قط كذبة ولا خيانة ولا فاحشة ولا ظلم قبل النبوة. وكان من حين ولد ظهرت فيه علامات الخير، وظهرت دلائل كثيرة لنبوته.

«لكن هذا الذي جرى لا يجب أن يكون مثله لكل نبي، فإنه أفضل الأنبياء والمرسلين وسيد ولد آدم. والله سبحانه إذا أهل عبده لأعلى المراتب رباه على قدر تلك المرتبة.

قال: «فلا يلزم إذا كان نبي قبل النبوة معصوماً من كبائر الإثم والفواحش صغيرها وكبيرها أن يكون كل نبي كذلك، ولا يلزم إذا كان الله قد بغض إليه شرك قومه قبل النبوة أن يكون كل نبي كذلك. فما نقل من حال نبينا وفضائله لا تناقض ما روي من أخبار غيره إذا كان دون ذلك، ولا يمنع ذلك كونه نبياً، ولكن الله فضل بعض النبيين على بعض، كما فضلهم في الشرائع والكتب والأمم، وهذا أصل يجب اعتباره». انتهى

فهذا نص أقوال شيخ الإسلام في رحمه الله، وهي أبين من الشمس، والأدلة التي

ذكرها تقطع الخلاف إن شاء الله في هذا الباب. وإذا بطل الأصل الذي تقوم عليه تأويلات المؤولين لقصة الخليل ﷺ، سقطت معه تأويلاتهم.

٣. ومما يدل على عدم وجوب إيمان النبي قبل بعثته أن الرسول ﷺ قال لعمر: «لو كان بعدي نبي لكان عمر». أخرجه أحمد والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال الألباني رحمه الله: «وهذا سند حسن رجاله كلهم ثقات». وذكر له شاهدين عند الطبراني من حديث عصمة ومن حديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنهما.[١٠٦]

ففي هذا الحديث ثناء على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأن الله حباه من الخصائص والمواهب والفضائل ما يؤهله للنبوة لولا أنها ختمت. ومعلوم أن عمر كان مشركاً قبل إسلامه، بل معادياً للرسول ﷺ، ومع ذلك فإن شركه وعداءه لم يفسد عليه فطرته ولا أزال عنه هذه الخصال والمواهب، وإن أضعفها أو حجبها مؤقتاً، لكنها بقيت معه حتى أسلم، فلما أسلم كَمُلت وحَسُنت، حتى قال فيه النبي ﷺ ما قال. فلو كان الشرك موجباً لفساد الفطرة ومن ثم امتناع الاصطفاء، لما تأهل عمر للنبوة بعد أن كان مشركاً، فإنه ما منعه منها بعد الإسلام إلا ختم النبوة.

وأما من قال: إن النبوة لو لم تختم لمنع الله عمر من الشرك قبل الإسلام، فإن هذا التأويل يجعل الحديث ذماً لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدل أن يكون مدحاً. فإن الحديث نص على أن عمر كان متأهلاً للنبوة حين قال ﷺ ما قال، وعلى تأويل المعترض، لا يكون متأهلاً، بل قد زال عنه من المواهب الفطرية بالشرك في الجاهلية ما كان يمكن أن يؤهله للنبوة. فعاد الحديث ذماً لعمر، وهذا مناقض لمقصود الحديث قطعاً. ولو جاز مثل هذه التأويلات لما احتاج ﷺ أن يعلل بختم النبوة، فإنه يمكن أن يقول القائل: لو لم تختم النبوة لهيأ الله من شاء من الصحابة للنبوة، فلم يعد الحديث مفيداً لأي معنى. وليس مع المعترض نص ولا إجماع يوجب هذا التأويل، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

---

[١٠٦] الصحيحة ١/٥٨٢.

الثاني: الترتيب بالفاء

واحتج المتأخرون بدلالة قوله تعالى في بداية القصة: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾، وأنه قال بعدها: ﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكباً﴾. قالوا: رتب واقعة الكوكب على أنه من الموقنين بحرف الفاء الدالة على التعقيب، فدل أن قصة الكوكب أعقبت وجود اليقين لدى إبراهيم، وبذلك يمتنع أن تكون القصة دالة على حيرته لمنافاتها لليقين.

والحقيقة أن هذا الاستدلال بعيد عن أسلوب القرآن في القصص. فها هي قصة يوسف عليه السلام يسبقها قوله تعالى: ﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق﴾ (يوسف ٦). ثم بدأ سرد أحداث القصة بعد هذه الآية. فهذا الأسلوب يستخدمه القرآن لبيان العبرة والمغزى من سرد الأحداث التالية للآية.

ونظير ذلك أيضاً قوله تعالى في قصة بني إسرائيل مع فرعون: ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك وأورثناها بني إسرائيل. فأتبعوهم مشرقين﴾ (الشعراء ٥٦-٦٠). مع أن بني إسرائيل آنذاك لم يكونوا قد ورثوا فرعون، إذ لم يكن قد هلك بعد، ولم يترتب التوجه نحو الشرق على الإرث. فالفاء في قوله: ﴿فأتبعوهم مشرقين﴾ ليست للتعقيب، وإنما للتفسير: فسر كيفية وقوع الإرث بالخروج من مصر ثم الغرق بعد ذلك.

ومن هذا الباب أيضاً قوله تعالى ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون﴾ (الأعراف ٤). فذكر أنه أهلك القرية، ثم بين كيف كان الإهلاك: بمجيء بأس الله تعالى بياتاً أو هم نائمون. فالفاء في قوله تعالى ﴿فجاءها بأسنا﴾ ليست للترتيب، لأن مجيء البأس سابق للهلاك وليس العكس، فهي إذن لبيان كيفية حصول الهلاك، نسأل الله السلامة.

وهكذا الفاء في قوله تعالى ﴿فلما جن عليه الليل ...﴾ الآية، فهي تفسر كيف كانت رؤية إبراهيم لملكوت السماوات والأرض في قوله ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾، كما ذكر ذلك ابن عطية.[١٠٧] وهي معطوفة على قوله ﴿وإذ قال

---

[١٠٧] الوجيز ٦/ ٨٩.

إبراهيم﴾، كما ذكر ذلك الزمخشري وأبو حيان.[١٠٨] قال ابن الوزير: «فدلت الآية على أن الله أراه الملكوت ليوقن بالله ويستدل عليه لا ليناظر ويجادل»، قال: «وليس في اللفظ ولا في المعنى ما يدل على أنه أرِي الملكوت ليحتج، بل ليوقن».[١٠٩] فصار العطف بالفاء دليلاً على النظر لا على المناظرة.

الثالث: نفي كون الخليل ﷺ كان مشركاً

واحتجوا بأن الله تعال قال عن ابرهيم: ﴿وما كان من المشركين﴾ (آل عمران ٦٧، ٩٥؛ الأنعام ١٦١؛ النحل ١٢٣) . قال الشنقيطي رحمه الله: «ونفي الكون الماضي يستغرق جميع الزمن الماضي، فثبت أنه لم يتقدم عليه شرك يوماً ما».[١١٠]

والجواب من وجوه:

١. قد قدمنا بيان كونه صلى الله عليه وسلم موحداً منذ البداية، وأن قوله للكوكب هذا ربي، كان مرده بحثه عن الرب الحق دون ما عداه، ولم يكن عن قناعة بالشرك أو اطمئنان إليه، بل العكس هو الصحيح.

٢. أن الله تعالى قال: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين﴾ (النحل١٢٠). فالسياق هو عن إبراهيم النبي، أي بعد نبوته واصطفائه من الله تعالى. ومعلوم أنه ﷺ لم يكن أمة منذ ولادته، بل بعد نبوته، فكذلك قوله تعالى ﴿ولم يك من المشركين﴾. وقال أيضاً: ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ (آل عمران ٩٥)، وملة إبراهيم التي أمرنا باتباعها هي ملته بعد نبوته ورسالته، وأما قبل النبوة فالسياق لا يتناوله.

٣. أن آيات سورة النحل نفسها تثبت امتنان الله تعالى على إبراهيم بالاهتداء، فقال : ﴿وما كان من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم﴾. فالله تعالى يمتن

---

[١٠٨] البحر المحيط ٤/١٦٦.

[١٠٩] البرهان القاطع، ص ٦٢–٦٣.

[١١٠] أضواء البيان ٢/٢٠١.

بهدايته لخليله صلى الله عليه وسلم، وهذه الهداية تشمل تلك التي في قوله: ﴿أتحاجونّي في الله وقد هدان؟﴾، أي هدايته للتعرف على الله تعالى واليقين بوحدانيته، فلا تعارض بحمد الله بين آيات القرآن، بل يصدق بعضها بعضاً. وإثبات الهداية هنا للخليل ﷺ يؤيد القول أن الآيات تتحدث عن إبراهيم بعد اهتدائه واصطفائه نبياً، فإن ذكر الهداية والاجتباء جاء لبيان فضله ومنزلته بعد الاصطفاء لا قبله.

٤. أن قوله تعالى ﴿وما كان من المشركين﴾ ينفي انتماء إبراهيم للمشركين، لكنه لا ينفي تقدم الشرك بأي وجه من الوجوه. فالانتماء للمشركين والكون منهم أخص من مطلق وقوع الشرك، وقوله تعالى ﴿وما كان من المشركين﴾ نفيٌ للأخص، وهو الانتماء للمشركين، وليس الأعم وهو مطلق وقوع الشرك. ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم باتفاق العقلاء، كما قرر ذلك الشنقيطي نفسه رحمه الله.[١١١] ولذلك فرّق القرآن بينهما في قوله تعالى ﴿ولا تكونن من المشركين ۞ ولا تدع مع الله إلهاً آخر﴾ (القصص ٨٧-٨٨). فقد عطف النهي عن دعاء غير الله على النهي عن الكون من المشركين، ولولا اختلاف المنهي عنه في الجملتين لما صح ذلك، إذ العطف يقتضي المغايرة.

ومما يوضح ذلك: أن قوله تعالى ﴿وما كان من المشركين﴾ نفى أن يكون إبراهيم مشركاً. وأهل السنة يفرقون بين كون الرجل مشركاً وبين صدور الشرك عنه، وهذا أصل أصيل من أصولهم ضل بجهله طوائف وحصل بسببه كثير من الفتن عبر التاريخ الإسلامي. فقد يصدر عن المرء ما هو كفر أو شرك لكن يكون معذوراً بشتى أنواع الأعذار، فلا يعتبر مشركاً أو كافراً. والآية التي احتج بها الشنقيطي رحمه الله نفت اسم المشرك، لكن لا يلزم من ذلك نفي صدور ما قد يكون شركاً ويكون صاحبه معذوراً فيه. فلا يصح الاستدلال بالآية على مرادهم. يبين ذلك:

٥. أن المجتهد في الوصول إلى الحق إذا أخطأ فلا إثم عليه ولا تثريب حتى لو كان ذلك في أمور العقيدة والتوحيد. قال شيخ الإسلام: «هذا هو القول المعروف عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الدين، أنهم لا يكفرون ولا يفسقون ولا يؤثمون أحداً من المجتهدين لا في مسائل عملية ولا علمية.» قال: «ولم يقل أحد من السلف والصحابة والتابعين إن المجتهد الذي

---

[١١١] انظر دفع إيهام الاضطراب ١٢١، وانظر البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣/٤٠٢.

استفرغ وسعه في طلب الحق يأثم لا في الأصول ولا في الفروع». وقال أيضاً: «الأقوال التي يكفر قائلها، قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون عنده ولم تثبت عنده أو لم يتمكن من فهمها، وقد يكون قد عرضت له شبهات يعذره الله بها. فمن كان من المؤمنين مجتهداً في طلب الحق وأخطأ، فإن الله يغفر له خطاياه كائناً ما كان، سواء في المسائل النظرية أو العملية».[١١٢]

إذا تقرر ذلك فإبراهيم عليه السلام قبل بعثته كان مجتهداً في بلوغ الحق وفي الوصول لليقين بالله تعالى، ولا فرق بين الخطأ في الاجتهاد في الأمور الاعتقادية وبينه في الأمور العملية، كما تقدم. فقول إبراهيم للكوكب: ﴿هذا ربي﴾ وإن كان في ذاته خطأً، لكنه خطأ مغفور، لأن الآيات صريحة في أنه كان مؤمناً بربه الذي يهديه مجتهداً في التعرف عليه. وهو لم يقل ﴿هذا ربي﴾ عن اعتقاد جازم بإلهية الكوكب حتى يوصف بالشرك،كما أشار لذلك ابن عطية في تفسيره،[١١٣] بل كان «تعريضاً للنظر والاستدلال، كأنه قال: هذا المنير البَهيّ ربي إن عضدت ذلك الدلائل». قال ابن الوزير: «فإن قيل على ما تحملونه؟ قلنا نحمله على أن هذا كان منه في أول أحوال تكليفه في مهلة النظر التي لا حرج على من أخطأ فيها، وأنه تحير في ربه من هو؟ ورأى أشرف الجهات جهة السماء العلوية، وأشرف ما فيها هذه الجواهر المضية، فقال في نفسه: أُنظر هل يجوز أن يكون أحد هذه الأشياء ربك؟ وكان قوله ﴿هذا ربي﴾ ليس قطعاً حصل بعد النظر، لكن فرض وتقدير، فبات وظل يتفكر، ...، ولم يزل ينظر حتى أداه نظره إلى أن لهذه الجواهر المضية خالقاً مثلما قد كان أداه إلى أن له خالقاً».[١١٤] فإذا كان هذا حاله، فهو في ذلك مأجورغير مأزور.

٦. يوضح ذلك أن الخليل في قوله ﴿هذا ربي﴾ كان معذوراً لوجوه:

الأول أنه كان مجتهداً مستفرغاً وسعه في الوصول للحق، كما تقدم.

الثاني أنه نشأ في بيئة ليس فيها شئ من آثار النبوة، ولا من بقايا التوحيد، بل هي بيئة قد

---

[١١٢] منهاج السنة ٥ / ٨٧، الفتاوى ١٣ / ١٢٥، ٢٣ / ٣٢٦، «التفريق بين الأصول والفروع» لسعد الشثري، ١ / ١٩٠–١٩٢، «نواقض الإيمان القولية والعملية» لعبد العزيز العبد اللطيف، ٥٢ .

[١١٣] الوجيز ٦ / ٩١ .

[١١٤] البرهان القاطع، ص ٥٨ .

ساد فيها الشرك بنوعيه، شرك الربوبية وشرك الألوهية، كما تقدم النقل بذلك.

الثالث: أنه كان مع إبراهيم من الإيمان الفطري آنذاك بربه وفرط شوقه لمعرفته واليقين به، واجتهاده وسعيه في ذلك، ما هو أعظم عند الله بدرجات من الخطأ في تعيين الكوكب.

وفي الصحيحين قصة الرجل الذي قال لأهله: «إذا أنا مت فاحرقوني، ثم ذروا نصفي في البر ونصفي في البحر، فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين. فلما مات الرجل فعلوا كما أمرهم، فأمر الله البَر فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه، فإذا هو قائم بين يديه، قال: لم فعلت هذا؟ قال من خشيتك يارب وأنت أعلم. فغفر الله له». قال شيخ الإسلام: «فهذا رجل شك في قدرة الله، وفي إعادته إذا ذُري، بل اعتقد أنه لا يُعاد، وهذا كفر باتفاق المسلمين. لكن كان جاهلاً لا يعلم ذلك، وكان مؤمناً يخاف الله أن يعاقبه، فغفر له بذلك».[١١٥]

فإذا كان هذا الرجل قد اعتقد ما هو كفر ومات على هذه العقيدة ومع ذلك غفر الله له بما معه من الخوف من الله، علم أنه لم يكن كافراً بعقيدته تلك ولا يجوز أن يسمى كافراً. فالخليل إذن أولى ألا يسمى مشركاً، والعلم عند الله تعالى.

الرابع: رشد الخليل عليه السلام

واحتجوا بقوله قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين﴾ (الأنبياء ٥١). ومرادهم أن الله آتاه رشده قبل النبوة. قال ابن حزم رحمه الله: «فمحال أن يكون من آتاه الله رشده من قبل يدخل في عقله أن الكوكب ربه، أو أن الشمس ربه من أجل أنها أكبر قرصاً من القمر، هذا ما لا يظنه إلا مجنون العقل. والصحيح أنه عليه السلام إنما قال ذلك موبخاً لقومه».[١١٦]

والجواب من وجوه:

الأول: إن كان حبر الأمة وترجمان القرآن وأئمة السلف مجانين العقل، والعقل هو

---

[١١٥] الفتاوى ٣/ ٢٣١، الفتح ٦/ ٥١٤، نواقض الإيمان ٦٢–٦٣.

[١١٦] الفصل ٤/ ٧–٨، مناهج الجدل ١٨١–١٨٢.

للمتأخرين زماناً وقدراً، فليَهْن هؤلاء عقلُهم، وليشهد الثقلان أنا بحمد الله راضون بما قسم الله للصحابة والأئمة من العقل والفهم لكتاب الله تعالى.

الثاني: أن هذا النمط في الاستنكار الذي يسوقه ابن حزم رحمه الله يصلح في حق من نشأ في بيئة مسلمة مؤمنة، وبلغه من أنوار الوحي وأضواء النبوة ما يبين له الحق ابتداء. أما من نشأ في بيئة خالية من آثار النبوة، وانطلق بنفسه يتفكر وينظر في ملكوت الله حتى أداه نظره وفكره للإيمان، فلا يسري عليه ما يسري على غيره. ومحاكمة مثل هذا أثناء رحلة البحث والنظر، بمعاييرنا نحن بعد الاهتداء، محاكمة غير عادلة.

الثالث: أن قوله ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل﴾ لا يدل بالضرورة على مطلوبهم. فالآية سبقها قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين ❁ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ❁ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ❁ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل﴾ الآيات (الأنبياء ٤٨-٥١).

فقوله ﴿من قبل﴾ يحتمل أن يكون من قبل موسى وهارون، كما قال القاسمي.[١١٧] ويحتمل أن يكون من قبل التوراة، كما رجحه ابن القيم رحمه الله.[١١٨] ويحتمل أن يراد به من قبل القرآن وهو الذكر المبارك الذي أنزله الله، كما في الآية قبلها. ويحتمل أن يراد من قبل نبوة إبراهيم عليه السلام، وحكاه القرطبي عن أكثر المفسرين.[١١٩] وعلى كل تقدير، إذا ورد الاحتمال بطل الاستدلال.

الرابع: لو كان التقدير من قبل نبوته، لكان أدل على قول ابن عباس رضي الله عنه والسلف من قول المتأخرين. فإن من ألهمه الله النظر والتفكر والاستدلال عليه حتى وصل إلى اليقين والإيمان بالله تعالى، أحق بأن يوصف بأن الله آتاه رشده ممن لُقن ذلك تلقيناً أو نشأ عليه دون نظر وتفكر، وبذلك صرح القرطبي رحمه الله حين قال: «﴿من قبل﴾ أي من قبل النبوة، أي

---

[١١٧] محاسن التأويل ١١/٢٦٣.

[١١٨] في شفاء العليل، ١/١٤٣، ط العبيكان.

[١١٩] الجامع لأحكام القرآن ١١/٢٩٦.

وفقناه للنظر والاستدلال، لما جن عليه الليل فرأى النجم والشمس والقمر».[١٢٠]

ويؤيد ذلك أن الله تعالى أضاف الرشد إليه في قوله ﴿رشده﴾، فدل على أن هذا الرشد كان بعد توفيق الله بسبب من إبراهيم نفسه ونظره وفكره. وفي جامع الترمذي أنه ﷺ علّم عمران بن حصين أن يدعو: «االلهم ألهمني رشدني وأعذني من شر نفسي».[١٢١] ومعلوم أن إلهام عمران رضي الله عنه رشده ليس هو إنزال الوحي عليه، بل توفيقه للحق بسبب منه. فكذلك إيتاء إبراهيم رشده، هو توفيقه للحق بسبب منه، ومن جملة الأسباب: النظر والاستدلال.

وهؤلاء المنكرون لنظر الخليل، كثير منهم يوجب النظر والاستدلال على المكلف، ومنهم من يقول: لا يصح الإسلام إلا بالنظر،[١٢٢] ثم هم مع ذلك يمنعون بشدة أن يصل أحد الأنبياء إلى الإيمان قبل البعثة بالنظر والاستدلال. فإن كان الإيمان بالنظر كمالاً فالأنبياء أحق به، وإن كان نقصاً فلم يوجبوه على عامة المكلفين؟

الخامس: المعرفة الفطرية والمعرفة النظرية

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾. قال الشهرستاني: «فيا عجباً ممن لا يعرف رباً كيف يقول: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين؟ رؤية الهداية من الرب تعالى غاية التوحيد ونهاية المعرفة. والواصل إلى الغاية والنهاية كيف يكون في مدارج البداية؟».[١٢٣]

والجواب:

أولاً: قوله «رؤية الهداية من الرب غاية التوحيد» محل نظر. فالاعتقاد بأن الهداية بيد الرب كالاعتقاد بأن الرزق والحياة والموت هي بيد الرب، جميعها تدخل في توحيد الربوبية.

---

[١٢٠] الجامع لأحكام القرآن ١١/٢٩٦.

[١٢١] جامع الترمذي (٣٤٨٣).

[١٢٢] انظر الفتح ١٣/٣٤٧-٣٥٤.

[١٢٣] الملل والنحل ٢/٥٣.

ولكن لا يعد ذلك غاية التوحيد حتى يتم إخلاص العبادة لله وحده، أي بإثبات توحيد الإلهية. فالاعتراف بأن الهداية بيد الرب ليس غاية التوحيد ولامنتهاه، بل هو مبتدؤه ومنشؤه. ولكن المتكلمين يصرفون جل عنايتهم لتوحيد الربوبية، ويهملون توحيد الإلهية، عكس منهج القرآن.

ثانياً: لا تعارض بين الإيمان بالرب في هذه الآية، والبحث عنه ونسبته إلى الكوكب في قوله هذا ربي. فإن الإيمان بالرب في هذه الآية هو الإيمان الفطري الذي وجده عليه السلام في قلبه ضرورة لا يستطيع دفعها. لكنه لم يصل بعد إلى تعيينه في الخارج والتعرف عليه والاهتداء التام إليه. والخطأ في التعيين لا ينفي ثبوت أصل الإيمان، كما في الصحيح أن النبي ﷺ لما هاجر هو وأبو بكر رضي الله عنه إلى المدينة، وصلها في الظهيرة، «فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر يظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك».[١٢٤] فلا يقول قائل: إن من ظن أن أبا بكر هو رسول الله ﷺ فإنه يكون منكراً لنبوته عليه السلام، وذلك أنه إنما أخطأ في التعيين، مع سلامة القصد وحسن المعتقد.

وفي الصحيحين في أحوال الناس يوم القيامة أنه ينادي منادي: «لتتبع كل أمة ما كانت تعبد. فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت. وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها. فيأتيهم الله تعالى في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه. فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه»، الحديث.[١٢٥] فالمؤمنون في هذا الموقف لم يعرفوا ربهم أول الأمر، فأخطؤوا في إنكاره، مع أن الذي رأوه في الحقيقة هو ربهم. وهم معذورون في هذا الإنكار، لأنهم رأوه في غير صورته التي يعرفون. فهذا خطأ في التعيين لا في أصل الإيمان بالله تعالى ومعرفته.

وقد قرر الفقهاء أن الرجل إذا أتى امرأة يظنها زوجته، فظهر أنها أجنبية، أو قتل من يظنه مباح الدم، فظهر أنه معصوم، أنه لا يأثم في ذلك، ويجب عليه ضمان ما أتلفه، وهذا الضمان

---

[١٢٤] صحيح البخاري (٣٩٠٦)، وانظر: البداية والنهاية ٤ / ٤٦٤.

[١٢٥] صحيح البخاري (٤٥٨١)، (٦٥٧١)، (٧٤٣٩)، صحيح مسلم (١٨٣).

من باب الجوابر، والجوابر لا تتوقف على المآثم.[١٢٦]

وقد قرر شيخ الإسلام رحمه الله أن المعرفة بالشئ المعين قد تكون مطلقة مجملة، وقد تكون معينة. ومثل لذلك بمن علم بوجود نبي مرسل، ولم يعلم عينه. كما قد يوجد من يعلم بوجود خالق مدبر للكون، لكنها معرفة مطلقة مجملة لا تدل على عين الباري تبارك وتعالى.[١٢٧]

وهكذا القول في الخليل ﷺ، علم أن له رباً هو المستحق للعبادة، لكن هذه المعرفة كانت مطلقة مجملة ولم تكن معينة، ولذلك اجتهد في تعيينه فأخطأ أول الأمر، ثم تبين له خطؤه فرجع عنه، فهو معذور في خطأ التعيين، لأن أصل الإيمان ثابت عنده عليه السلام.

ومما يدل على أن خطأ إبراهيم عليه السلام كان في التعيين فحسب أنه قال عن الشمس: ﴿هذا ربي﴾، مع أن لفظ الشمس مؤنث بنص قوله ﴿فلما رأى الشمس بازغة﴾ وقوله ﴿فلما أفلت﴾، بينما لفظ الرب مذكر. وقد تعددت اجتهادات المفسرين في تأويل هذا الاختلاف بين التذكير والتأنيث، فذهب بعضهم إلى أن التقدير: هذا المرئي، أو هذا الضياء، أو هذا الطالع.[١٢٨] وظاهر العبارة أن مراده: هذا الرب الذي كنت أبحث عنه، ولذلك رجح استعمال الضمير المذكر على المؤنث، لأن مقصوده التعرف على الرب الذي آمن به مسبقاً، وليس تحديد صفة الشمس، وهذا بيّن ولله الحمد.

وقد قدمنا أن الخليل ابتدأ بالمعرفة الفطرية المركوزة في نفس كل إنسان سوي. وأن نظره أداه إلى الإيمان الواعي بالله تعالى، المتضمن للمعرفة العقلية النظرية. ولا تناقض بين الأمرين بطبيعة الحال، والله تعالى أعلم.

السادس: الحجة التي أوتيها إبراهيم

ومن أدلتهم قوله تعالى: ﴿أتحاجوني في الله وقد هدان﴾، وقوله:﴿وتلك حجتنا آتيناها

---

[١٢٦] انظر القواعد الكبرى للعز بن عبد السلام، ط دار القلم، ١/٣٤-٣٦، ١٨٤-١٨٦.

[١٢٧] درء التعارض ٩/٨-١٦.

[١٢٨] انظر البحر المحيط ٤/١٦٧.

إبراهيم على قومه﴾. قالوا: فهذا دليل على أن السياق سياق مناظرة ومحاجة، لا نظر واستدلال. وقد ذكر الله أنه آتى الحجة لإبراهيم على قومه، ولو كان ناظراً لكانت الحجة على نفسه لا على قومه.

والجواب من وجوه:

الأول: قد قدمنا أن المحاجة المذكورة إنما وقعت بعد النظر في الملكوت وبعد اهتداء إبراهيم لليقين. ولو كان إبراهيم مهتدياً من أول الأمر لوقعت المحاجة من البداية، ولم يكن هناك معنى لتأخر المحاجة إلى ما بعد قصة الكوكب. فالآية في الحقيقة حجة للسلف لا عليهم.

يوضح ذلك: أن الخليل عليه السلام استنكر الأصنام في أول القصة في قوله ﴿أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾، لكن لم يذكر توجهه لله تعالى، ثم جاء في آخر القصة فأنكر الشرك وأثبت التوجه لله فقال: ﴿إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً﴾. ولما استنكر الأصنام لم يحاجه قومه لمجرد اعتقاده ضلالهم، وإنما حاجوه لما دعا إلى التوحيد الحق وصدع به. فلو كان نبياً من أول الأمر لصرح بالدعوة إلى الله وحده من البداية ولوقعت المحاجة منذ البداية، فلما لم يفعل علمنا أنه لم يكن كذلك.

الثاني: أنه قال ﴿وقد هدان﴾ بعد واقعة الكوكب، فدل على أن الهداية وُجدت بعد قصة الكوكب لا قبله. ويؤكد ذلك قوله ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾. وقد قدمنا أن هذه الجملة تفيد أن الخليل حين قالها كان فاراً من الضلالة، طالباً للهداية. ففعل الشرط وجوابه كلاهما غير متحقق حين صدور الجملة، وهي كقول آدم عليه السلام ﴿وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾. فإذا كان إبراهيم أثناء قصة الكوكب لا يزال يبحث عن الهداية، ولم تتم له بعد، ثم جاء بعدها وقال ﴿أتحاجوني في الله وقد هدان﴾ علم قطعاً أن الهداية حصلت بعد النظر في الملكوت وليس قبله، وأن المحاجة وقعت بعد الاهتداء وليس قبله.

وذكر ابن الوزير رحمه الله أن الواو تقتضي أن القصة الثانية غير الأولى، فلو كانت هي الأولى لجاءت بغير واو، نحو أن تقول: قالوا كذا، مثل ما حكى عنه في جوابه عليهم: قال أتحاجوني، ولم يقل: وقال أتحاجوني. أو أن تأتي بالفاء إذ فيها معنى السبب، وأن محاجتهم له

مسببة عن احتجاجه وجواباً عليه.[١٢٩]

الثالث: أن المراد بالحجة التي آتاها الله إبراهيم على قومه هي قوله: ﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به سلطاناً، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾. فهذه هي الحجة التي حج بها إبراهيم قومه. ويتبين مدلولها من مجموع ثلاثة أمور:

أحدها: أن التخويف بالآلهة فرع عن ثبوتها في نفسها. فمن شك في ثبوتها ابتداء كيف يُخوف بها؟ فالواجب أن يقيموا الحجة هم أولاً على ثبوتها، ثم يخوفوه بها، فلما لم يفعلوا، ولن يفعلوا، لم يكن هناك ما يدعو إبراهيم للخوف منها.

ثانيها: أن ثبوت الرب تعالى متيقن لدى الجميع، وماعداه متنازع فيه. واليقين المتفق عليه لا يعارض بالشك المتنازع فيه. والمحاجة إنما تكون بالاستدلال بمواطن الاتفاق على مواطن النزاع، وليس العكس.

ثالثها: أن إثبات الآلهة المزعومة إنكار لتفرد الرب بالألوهية، وذلك إنقاص لقدره وكماله تعالى. وهذا يستوجب الخوف من غضب الرب أن يثبت له شركاء بغير حق ولا برهان.

وبناء على هذ المقدمات الثلاث فالخوف من إثبات الشركاء للرب المتيقن أولى من الخوف من الآلهة المشكوك فيها أصلاً. فأي الفريقين أحق بالأمن إذن؟

فهذه هي الحجة التي أقامها إبراهيم على قومه، وهي حجة بينة ظاهرة. فأين هذه الحجة من قوله ﴿لا أحب الآفلين﴾؟ وأين هذه المحاجة من واقعة الكوكب؟ فهذا الفرق الظاهر بين الموقفين دليل على أن قصة الكوكب لم تكن محاجة بحال من الأحوال.

تتمة وقد استدل المنكرون للنظر بأمور لا علاقة لها بالآيات، كدعاء إبراهيم: ﴿رب اجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾، وقوله تعالى ﴿وجاء ربه بقلب سليم﴾، ولا أرى كبير طائل من التعرض لذلك، فقد تقدم ما فيه مقنع لمن رام الحق وتجرد للدليل، ولمن اعتقد أن منهج الصحابة والسلف رضي الله عنهم هو المنهج الأقوم والصراط الأهدى. نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم، ويسلكنا في زمرتهم، إنه ولينا ومولانا، نعم المولى ونعم النصير.

---

[١٢٩] البرهان القاطع، ص ٦٤.

(١٢)

خاتمة

وحاصل المباحث المتقدمة أن آيات سورة الأنعام تدل على أن إبراهيم عليه السلام أول الأمر كان مستنكراً لعبادة الأصنام، مؤمناً بأن له ربا هو المستحق للعبادة دون سواه، لكنه لم يكن قد اهتدى إلى تعيينه. فانطلق يتأمل ويتفكر في ملكوت السماوات والأرض، حتى هداه الله تعالى إليه. فأعلن حينئذ البراءة من شرك قومه، وإيمانه بالله تعالى وحده لا شريك له. وهو في رحلته الإيمانية هذه كان مجتهداً للوصول إلى الحق، مخلصاً في البحث عنه، فمهما صدر عنه في هذه الحال من خطأ فهو مغفور، باتفاق أهل السنة والجماعة.

والله تعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين.